خرز العقد

حكاية أب

حين تتناثر الخرز

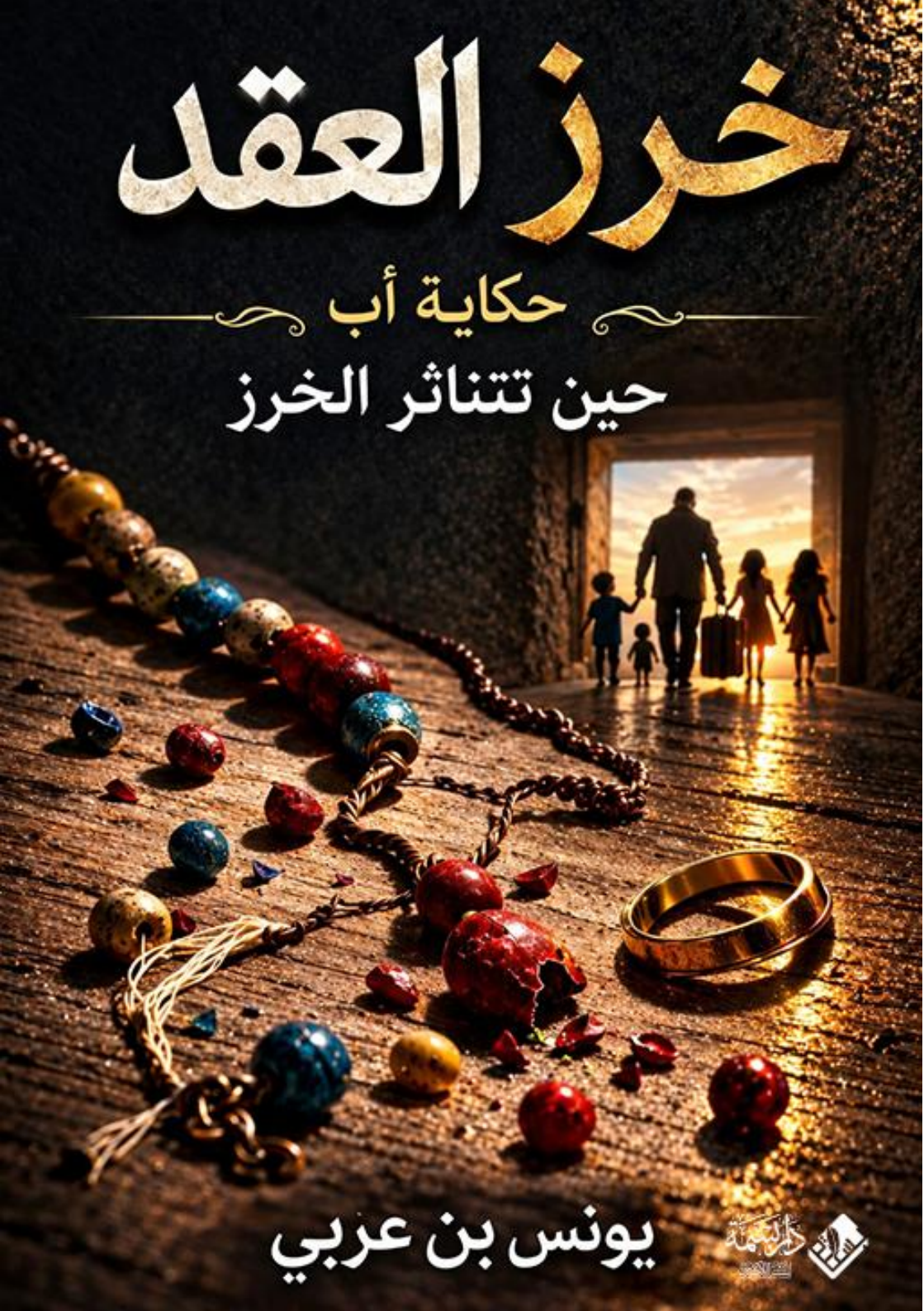

يونس بن عربي

خـرز الـعـقـد

اسم الكتاب: خرز العقد: حكاية أب، حين تتناثر الخرز
اسم الكاتب: يونس بن عربي
نوع العمل: نصوص
الرقم الدولي EBIN: 16-1-442-260426
الناشر: دار بسمة للنشر الإلكتروني
الطبعة الأولى: 2026م / 1447هـ

دار بسمة للنشر الإلكتروني

00212771814934

@ bassmabook

bassmabook@gmail.com

المملكة المغربية

دار بسمة للنشر الإلكتروني تُقدم جميع خدمات النشر، ولا تتحمّل أي مسؤولية تجاه المحتوى، إذ إن الكاتب وحده هو المسؤول عن نتاج فكره.. ولا يجوز بأيّ صورة نشرَ أو إعادة طبع أي جزء من هَذَا الكتاب، أو نقله عَلَى أي نحو كَانَ، أو بأيٍّ طريقة سواء كَانَت إلكترونية أو بالتصوير أو خلاف ذلك، إلاّ بموافقة خطية من الناشر أو المؤلف. ©

خـرز الـعـقـد

حـكـايـة أب، حـين تـتـنـاثـر الـخـرز

نصوص

يونس بن عربية

الإهـداء

إلى أبنائي...

قد تعبث عواصف الحياة بخرزات العقد، فينفك، ثم تنفلت منه حبة تلو الأخرى...

وأقسمت أن أكون مشبكه، وأن تسبح خرزاته، كالكواكب في هذه الحياة سليمةً، لامعةً، مُشِعّة...

أنتم ما بقي منه في قلبي.

إليكم أهدي هذه الحكاية، لا لتعرفوا كم تألمت... بل لتعلموا كـــم أحبكم، وكم كنت، وسأبقى إن شاء الله، أقاتل من أجلكم.

مقدمة

هذه ليست حكاية بطل...

ولا قصة انتصار.

هي مجرد طريق...

قد يمرّ به أي إنسان...

ويتركه مختلفًا.

بعض الحكايات...

لا تُروى لأنها انتهت، بل لأنها تشبهنا...

بطريقة ما.

تنويه

هذه رواية أدبية.

جميع الشخصيات والأحداث الواردة فيها من نسج الخيـــال، وأي تشابه مع أشخاص أو وقائع حقيقية هو محض صدفة.

المحامي

جلست أمام المحامي الثاني الذي أقصده طلبًا للإنصاف.

كانت الطاولة بيننا مغطاة بالملفات، وملفي بينها مفتوح كأنه جرحٌ معروض.

غير معقول أن تكون حياتي كلها أبنائي، ثم يُحكم عليَّ بالابتعاد عنهم من غير جرمٍ اقترفته، بل فقط لأنه قرار اتخذته زوجة أعانتها عليه أمها التي كانت تدفع الأمور في اتجاه لا أفهمه.

تفحّص المحامي الملف ببطء، يقلب الصفحات دون أن ينظر إليّ.

قرأ التهم الموجهة ضدي، ثم قال ببرود:

– لا بد أن تخرج من البيت وتبحث لك عن مكانٍ آخر يأويك، وسأعطيك لائحة الوثائق التي يجب تقديمها لي لكي نحدد النفقة.

شعرت أن الأرض دارت من حولي.

حاولت أن أتكلم...

لكن صوتي خرج مكسورًا.

نظرت إلى الأرض حتى لا يرى وجهي.

قهرتني الدموع، وهزمني البكاء.

بصعوبة قلت:

– لا توجد عدالة هنا...

لا توجد عدالة.

أشار إلى الملفات المتراكمة فوق مكتبه وقال:

– انظر إلى هذه الملفات...

رفعت رأسي.

– كلهم يحملون الموضوع نفسه.

توقف لحظة ثم قال:

– أنا آسف.

خرجت من عنده وأنا كطفلٍ تائه.

كان ابني البكر ينتظرني خارجًا.

كان يمسك حقيبته المدرسية بيده، وينظر إليّ بصمت.

ما إن رآني حتى فهم كل شيء.

انفجرت باكيًا.

أخرجت الهاتف واتصلت بها.

– أين أنتِ؟

قالت ببرود:

– في مطعم آدم.

في تلك الفترة كانت لا تفارق المطاعم، ولا المحلات، ولا السفر، ولا أماكن التجميل.

كان الشيطان يوهمها أن الحياة التي تنتظرها هناك...

في ذلك النمط من الحياة.

وصلت إلى المكان.

أردت أن أسلم عليها...

فأبت.

نعم... أبت.

كانت قد قررت أن أكون العدو.

قررت قساوة القلب حتى لا تعود إلى مؤسسة الزواج،

المؤسسة التي تحذرها منها المؤثرات على مواقع التواصل.

أما أمها...

فابتسمت لي وحيّتني.

تدبر كل شيء في الخفاء، ثم تقابلك بابتسامةٍ مخدِّرة.

نظرت إلى أبنائي وقلت لهم باكيًا:

– أتعلمون؟

إن فارقتكم يومًا... فهذه السيدة هي السبب.

كونوا أقوياء...

أستودعكم ربي.

وفي تلك اللحظة لم يخفف عني شيءٌ إلا تذكري لسيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو يستودع أهله لله في ذلك المكان المعزول.

لكن المرأة التي كانت زوجتي صرخت:

– دعك من السينما...

إنك تفعل هذا فقط لتجعل الأطفال يميلون إليك.

كان إحساسًا قاسيًا...

أن تُنتزع منك روحك، ثم يتَّهمك أنينك.

رفعت بصري إلى السماء وقلت في سري:

حسبي الله ونعم الوكيل في فريقهم كله.

أصبح الإسلام تهمة

لم يكن الطلاق كما صورته لنا المسلسلات القديمة.

تلك الكلمة القاتلة التي تخرج كرصاصة رحمة، فتنهي علاقة استحال استمرارها، وترسم ملامح حياة جديدة قد تكون مؤلمة، لكنها مستقرة.

لم يكن الأمر كذلك.

كان عامًا كاملًا من المعاناة.

عقابًا يتوزع على الرجل من كل جانب.

قنبلةً عنقودية يزرعها شياطين الإنس والجن في غرفتك، وأنت تحتسي حريرة رمضان.

كانت القنابل تتعاقب عليّ، تخط قصصًا مأساوية تختبر صبري وجلدي.

كنا لا نزال نسكن في البيت نفسه.

كانت تريد طردي، وتبحث عن أي وسيلة لإخراجي عن صوابي، لتدينني بما لم أفعل.

جاءت حمالة الحطب من المغرب خصيصًا، لتضع الخطط الخبيثة وتبلغ مرادها أخيرًا.

كان يوم جمعة. استيقظت من اليقظة لا من النوم، ففي تلك السنة لم أكن أعرف للنوم سبيلًا.

اغتسلت، أخذت سيارتي، وابتعدت قليلًا عن المترل.

وجدت رقم هاتف غريبٍ مكتوبًا على ورقة، فاتصلت:

– ألو، من فضلك سيدي، لمن هذا الرقم؟

– إنها مؤسسة تعنى بتعنيف الأطفال من طرف مسلمين متشددين.

أدركت حينها أنها محاولة جديدة لاتهامي.

لا أقول إنني خفت؛ فالخوف يباغت الآمن، أما أنا فكنت أرتـــدي لباس الوجل في كل حين.

حان وقت الصلاة.

عدت إلى المترل لأصطحب ابني.

دخلت، فإذا بها تنظر إليّ من أعلى الدرج وتقول بحدة:

"راهم جايين يقرقبوا على أمك".

كانت جملة إجرام.

كانت تعني أن الشرطة المختصة في قضـــايا الإرهـــاب في طريقهـــا للقبض عليّ.

رأيت في عينيها يقينًا غريبًا...

كأن الشيطان يتكلم من خلالهما.

فزعت. لم أرد أن أُصفّد أمام أبنائي.

خرجت مسرعًا، وبدأت أراقب من بعيد.

وفعلًا، جاءت دورية شرطة مختصة.

خرجت إليهم بلا حجاب، لتوهمهم أنني كنت أفرضه عليها.

ويعلم الله أنني تزوجتها محجبة.

خرجت أمها كذلك.

فررت.

أصبحت أختبئ من سيارات الشرطة، أتوهم أنهم نشروا أوصـــافي، وأن القبض عليّ مسألة وقت.

اتصلت بابني...

انقطع الخط.

كانت تقول لي:

"سيأخذون أبناءك إلى مؤسسة، وأنا معهم... لن تراهم أبدًا".

عندها صدّقت أنهم أخذوهم فعلًا.

صرت كالمجنون أمشي في الطريق، أبكي، وأقول للمارة:

"أخذوا أبنائي... أخذوا أبنائي".

كان الناس ينظرون إليّ وكأنني فقدت عقلي.

اتصلت بصديقي جبريل وأنا في حالة هستيريا.

هدّأني وقال:

"اتصل بمحامٍ".

قلت له:

– أخذوا أبنائي، والشرطة تبحث عني...

فقال:

"أنت لست في غابة يا سيدي. عد إلى بيتك، لن يحدث شيء".

اتصلت بالشرطة لأتأكد، فأكدوا لي الأمر نفسه.

ثم اتصل بي ابني أخيرًا، وهو يبكي:

"أبي، لقد افترت عليك أمي وجدتي.

قالتا إنك تفرض علينا الصلاة، وتأمر أختي بالحجاب.

سمعتهما من النافذة، فخرجت أنا وأختي وقلنا للشرطة إنهما تكذبان.

أبي لا يفرض علينا شيئًا، ولم يعنفنا يومًا.

أبي... قالت لي الشرطية:

اتصل بأبيك وقل له أن يعود إلى البيت".

ثلاث سنوات مرّت...

وما زال ذلك اليوم لا ينتهي في داخلي.

التوقيف

لم أعد أستطيع النوم.

أسكن مترلي، ولم يتبقَّ لي سوى شهر واحد لأغادره... هكذا كان قرار المحكمة.

لم يعد لديّ مال، كل ما كان بحوزتي أخذته المحامية الجديدة الباهظة التكاليف، عسى أن تمكّنني من استرجاع حق الحضانة.

كانت الزوجة المتمردة آنذاك لا تهتم بالأطفال.

تأخذ سيارتي الجديدة وتسافر مع أمها إلى فرنسا، وترتاد المطاعم وتتنزه في ما يشبه جنة المسيح الدجال.

كنت أنظر إلى حديقة مترلي، التي غرست فيها الورد وأشجار الزيتون وعناقيد العنب الصغيرة المتدلية، وأدرك أنني لن أقطفها كما كنت أفعل من قبل.

أتذكر قول الرحمن سبحانه: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وأسأله سبحانه أن يقتص لي منهم.

أخبرني هاتفي بوصول رسالة إلكترونية.

كنت أفزع كثيرًا من تلك الإشعارات؛ فإما تُهم جديدة، أو مطالب مالية جديدة لا قِبل لي بها من المحامية.

قرأت الرسالة...

كانت تبلغني بتهمة جديدة.

دخل بيتنا ذات يوم لصٌّ حتى وصل إلى المطبخ.

رأيته فانقضضت عليه.

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أضع عصًا قرب غرفة النـــوم، وكلمـــا سمعت صوتًا نزلت مسرعًا لحماية البيت.

أما التهمة التي قرأتها فكانت أن زوجتي تتهمني بأنني إنسان عنيف.

التقطت صورة العصا، وقدمتها للمحكمة دليلًا ضدي.

العصا التي كانت تحميها... كسرتها.

وانكسر قلبي معها.

شعرت أن في الأمر إشارة؛ كأنها تكسر الحماية، وتتجه لتحتمي بمـــا هي فيه الآن... ومع من هي فيه الآن.

(اللهم لا شماتة).

كانت الحياة عسيرة.

ذهبت إلى طبيب العمل، وبمجرد أن رآني قال:

"يجب أن تتوقف عن كل شيء. أن تأخذ قسطًا من الراحـــة... أن تسافر".

كنت قد فقدت خمسة عشر كيلوغرامًا من وزني في وقت وجيز.

حجزت رحلة إلى المغرب.

حجزت مكانًا قريبًا من أمي.

كان دعاؤها لي دائمًا حجابًا واقيًا.

أنا الآن في المطار...

أنتظر دوري لتقديم جواز السفر.

ها أنا أمام الدركية.

نظرت إلى جوازي، ثم أخذت تحدّق بي بطريقة مريبة.

أدركت أن هناك أمرًا غير عادي؛ فقد كنت أرى مثل هذه المشاهد في الأفلام... مع أخطر المجرمين.

قالت لي:

"لا يمكنك الولوج. انتظر هنا".

ثم أخذت الهاتف وبدأت تتكلم وهي تنظر إليّ.

اتصلت بصديقي جبريل وقلت له:

"أنا في ورطة. إن غبت، فاعلم أنني محتجز لدى الشرطة".

ما إن أنهيت المكالمة حتى رأيت مجموعة من رجال الشرطة يتجهـــون نحوي.

أمسكوا بي وأخذوني.

سألتهم عن سبب التوقيف، فقالوا:

"لا نعلم".

أما أنا... فكنت أعلم أن هناك من يقف خلف ذلك.

لكنني لم أكن أدرك التهمة بعد.

الطابق السفلي

إحساسٌ لا يُشبه شيئًا...

أن تُنتزع من بين المسافرين كما تُنتزع ورقةٌ من كتاب، دون شرحٍ أو تمهيد. يدٌ على كتفك، وأخرى تشير: "تفضل معنا".

لم تكن في الوجوه قسوة، لكن في صمتهم ما يكفي لـــزرع ألـــف احتمال.

قادوني عبر ممرٍّ طويلٍ ضيّق. لا صوت إلا وقع خطواتنا المتســـارعة، يتردد على الجدران الباردة كأنه يلاحقني. حاولـــتُ أن أُســـكت الضجيج الذي بدأ يتكاثر في رأسي. فكرةٌ تُولد، وأخرى تتضـــخم، وثالثة تهمس بأسوأ الاحتمالات.

أغمضتُ عينيّ لحظة، وقلت في سري:

"بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم".

لم يتغيّر المكان، لكن شيئًا ما استقام في داخلي.

في نهاية الممر كان مصعدٌ هبط بنا إلى الطابق السفلي. هنـــاك، بـــدا الهواء أثقل. أُدخلتُ غرفةً ضيّقة، وطُلب مني الانتظار.

سألت:

– ما التهمة؟

أجاب أحدهم ببرودٍ إداري:

– لا نعلم. هناك أمر بتوقيفك. التفاصيل عند شـــرطة بروكســـل أندرلخت. لم نحصل على رد بعد.

أخرجتُ كل ما في جيبي. حتى هاتفي، آخر خيطٍ يربطني بالعـــالم، وُضع في علبة بلا ملامح.

بصمات.

صورة أمامية.

صورة جانبية.

تفتيشٌ صامت، وتعليماتٌ قصيرة لا تحتمل النقاش.

في لحظةٍ خاطفة مرّ سؤالٌ موجع:

ألهذا الحد يُصبح الزواج تهمة؟

ألهذا الحد يُصبح السعي من أجل أسرة شبهة؟

بعد ساعة تقريبًا، أُغلِق باب زنزانة خلفي بصوتٍ حـــادّ. جلســـتُ وحدي. كان الفراغ أوسع من الجدران.

رفعتُ رأسي قليلًا، وناجيتُ الذي أنجى إبراهيم من النار، وأخـــرج يوسف من السجن، وأعاد يونس من بطن الحوت إلى الضوء.

همستُ:

"لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين".

لم أطلب معجزة، طلبتُ فقط عدلًا.

بعد ساعاتٍ لا تُقاس بالوقت بل بالثقل، فُتح الباب.

– السبب هو زوجتك. تتهمك بالعنف والتهديد. هل تريد محاميًا؟

هنا فقط اتضحت الملامح.

قلتُ دون تردد:

– نعم.

اتصلتُ بمحامية من مدينة شارلوروا. كان صوتي متماسكًا، لكن في أعماقي كانت غصّة تحاول ألا تتحول إلى انكسار.

حين حضرت، سُجّلت أقوالي. كان المحقق ينصت أكثر مما يتكلم. التهمة بدت هشة، بلا دليلٍ حقيقي. رأيتُ في العيون ما يشبه التعاطف الصامت، وكأن الحقيقة لا تحتاج دائمًا إلى صراخ كي تُفهَم.

في النهاية قال المحقق:

– سننتظر القرار، وسنخبرك.

عدتُ إلى الزنزانة.

هذه المرة لم يكن المكان هو ذاته. لم أعد ذلك الرجل الذي اقتيد بين المسافرين. كان في داخلي يقينٌ صغير، لكنه صلب:

أن الظلم، مهما اشتدّ، عابر.

وأن الممرّات الضيّقة لا تُفضي دائمًا إلى العتمة... أحيانًا تكون الطريق الوحيدة نحو كشف الحقيقة.

جلستُ، وأسندتُ ظهري إلى الجدار البارد، وأغلقتُ عينيّ.

كنتُ وحدي...

لكنني لم أكن مهزومًا.

الباب يُفتح، إنه المحقق، مبتسمًا:

يمكنك المغادرة، ويمكنك أيضًا أن تضع شكاية إن أردت...

– لا، فقط أعود إلى المطار لأحجز من جديد، رحلة إلى بلدي...

في الطائرة

ها أنا في المطار من جديد.

المطارات لا تشبه كل الأمكنة؛ إنها مناطق عبور بين حياتين.

وقفت أمام الشاشة الكبيرة، أتتبع أسماء المدن كما لو أنني أفتش عن مصيري بين السطور المضيئة.

وجدة...

أقرب رحلة بعد أسبوع.

أسبوع؟

كان الأسبوع في تلك اللحظة عمرًا كاملًا من الانتظار، وأنا لم يعد في داخلي ما يحتمل التأجيل. شعرت أنني لو بقيت ساعة أخرى في مكاني سأنهار.

قلت في نفسي: أي طائرة تتجه اليوم إلى أرضٍ مغربية، سأكون على متنها إن شاء الله..

كانت طنجة الأقرب زمنًا.

لم أتردد. لم أبحث عن منطق. كأن شيئًا في داخلي قرر بدلًا عني.

مرّت الإجراءات بسرعة غريبة، كأن العالم يتآمر ليُجرّني نحو قدرٍ لا أراه. كنت أقدّم جواز سفري، أستلم بطاقة الصعود، أتحرك بين الصفوف، لكنني لم أكن حاضرًا بالكامل. كنت أشبه بشخص يشاهد نفسه من بعيد.

جلست في المقعد قرب النافذة.

المضيفة ترتدي سترة النجاة الصفراء وتشرح بوجهٍ هـــادئ كيـــف ننجو إذا سقطنا في البحر.

فكّرت بسخرية صامتة: أحيانًا لا نسقط في البحر... بل في الحيـــاة، ولا توجد سترة نجاة.

أغمضت عيني.

لم يكن نومًا. كان هروبًا مؤقتًا من صورٍ تطاردني.

رمضان **1444**، الموافق لسنة **2023** ميلادي.

الخميس، أول يوم في الشهر.

السابعة ودقيقة مساءً كان أذان المغرب في ذلك اليوم.

كنت أعمل مسؤولًا في شركة ألمانية كبرى. وظيفة مرموقة، ساعات طويلة، عودة متأخرة. العاشرة ليلًا كان وقت انطفائي اليومي.

مرّ الخميس، ثم الجمعة.

وجاء السبت.

كان السبت يعني لي شيئًا بسيطًا لكنه عظيم: الإفطار مـــع عـــائلتي الصغيرة.

تلك اللحظات لا تُقدَّر بثمن؛ نِعَمٌ خفية يعيشها الإنسان وهو زاهد، لا يدرك قيمتها إلا لبيبٌ مستحضرٌ للنعم، أو سجينُ غربةٍ وجدران.

اقترب الأذان.

المائدة مرتّبة.

الأطباق تلمع في ضوء الغروب.

كانت زوجتي صامتة على غير عادتها. تتحرك كثيرًا، تنظر إلى شيء لا أراه. ظننتها مرهقة. تعبي ذلك اليوم جعلني غير بارعٍ في قـــراءة الإشارات.

جلست.

مددت يدي إلى زلافة الحريرة.

دفؤها بين كفّيّ كان يشبه طمأنينة قديمة.

رنّ الهاتف.

– اصعد إلى الغرفة... أريد أن أكلمك.

كان في صوتها شيء لا يبشر بخير.

شعرت بانقباضٍ بارد في صدري.

– خير إن شاء الله؟

– نعم... خير.

كلمة "خير" أحيانًا تكون قناعًا لكارثة.

صعدت.

كانت واقفة في وسط الغرفة. لا دموع، لا تـــردد. فقـــط نظـــرة مستقيمة.

– طلّقني.

في لحظةٍ كهذه لا يسمع الإنسان الكلمة وحدها، بل يسمع انهيـــار سنواتٍ دفعة واحدة.

نظرت إليها طويلًا.

في الأيام الأخيرة كانت بعيدة، وإن كانت تجلس بجواري. الهـــاتف صار عالمها الموازي. ساعات من الهمس والرسائل مع أمهـــا ومـــع فريق تفرقة، وكله الشيطان لذلك،

إنهم فريق مجتهد يحمل رسالة الطلاق بطاقة غريبة، وبحزم يفوق همـــة أهل الحق.

– ماذا تقولين؟ استعِيذي بالله...

– طلّقني.

كررتها بالبرود نفسه.

كأنها لا تطلب... بل تُعلن.

قلت: نعم، سأفعل.

كنت أظنها موجة عابرة. غضبًا مؤقتًا. سوء فهم. وأن الزمن سيعيد ترتيب المشاعر كما يفعل دائمًا.

لكن الزمن لم يكن في صفي.

جاءت أمّها من المغرب، بعض الزيارات لا تأتي للصلح، بل لتثبيت قرارٍ كان مترددًا.

إنها شهوتها منذ البداية، لم تكن ترغب في زواج ابنتها معي، وافقت فقط لأكون وسيلة تأتي بها ابنتها إلى بلجيكا لإتمام الدراسة، وأنا لم أفهم ذلك إلا متأخرًا، نفس الأمر فعلته هذه العجوز مع ابنها الذي كان يقطن ليبيا، سافرت من المغرب إلى ذلك البلد فنجحت في تطليقه من زوجته، والغريب أنها فعلت كل ما وسعها كي لا يعترف بابنه من تلك المرأة...

في اليوم التالي دخلت عليّ وقالت بلهجةٍ رسمية لم أعرفها فيها من قبل:

– ذهبت إلى محامية... ثم إلى جمعية نسائية. قلت لهم إني أريد الطلاق. قالوا لي لا يجب أن أبقى معك. زوجك قد يكون خطيرًا... وربما يُقدم على أي شيء.

شعرت كأن الأرض سُحبت من تحت قدمي.

– ماذا قلتِ لهم؟

– كيف أكون خطيرًا؟

– كيف يمكن أن يأخذوا أولادي؟

كلمة "خطير" علقت في الهواء بيننا.

كنت أبحث في ذاكرتي عن جريمةٍ لم أرتكبها.

في تلك اللحظة فهمت شيئًا واحدًا:

حين تتغير الرواية، يصبح الرجل الذي كان أبًا وزوجًـــا... مجرمًـــا خطيرًا.

فتحت عينيّ في الطائرة.

كأنني أخرج من قاع بئر.

صوت المحركات ثابت.

السماء صافية.

لكن داخلي كان يعبر عاصفة لم تنتهِ بعد.

أدركت أن الرحلة إلى طنجة لم تكن هروبًا من مدينة...

بل محاولةً متأخرة لفهم كيف انهارت حياة كاملة في جملة واحدة، "طلّقني".

أغمضت عينيّ من جديد، واستسلمت للأحداث المتتالية..

كانت ملابسي على الأرض

لم تكن تلك غفوة عابرة، بل رحلة خاطفة إلى قلب تلـــك الأيـــام الثقيلة.

في اليوم الموالي لذهابها إلى الجمعية، طرق ابني الباب ثم دخل بهدوء. اقترب مني أكثر، ثم همس في أذني بصوت خافت كأنـــه يخشـــى أن يسمعه أحد:

– أبي... سمعت أمي تقول لجدتي إن الجمعية قررت إبعادنا عنـــك. سيأتون اليوم ليأخذونا... أبي، أنا لا أريد أن أفارقك.

لم يكن زلزالًا خرج من باطن الأرض ليهزّها تحت قدميّ.

كان انفجارًا داخليًا، زلزالًا صامتًا يشقّ صدري ويبعثر كل معـــنى للوجود.

في تلك اللحظة استقال المنطق، ولم يبقَ في الساحة إلا الانفعال.

أخرجت هاتفي بسرعة.

– ألو... الشرطة؟

– نعم، تفضل.

– هناك من يريد أن يأخذ أبنائي اليوم... بأي حق؟

سألني الصوت في الجهة الأخرى:

– عمّ تتحدث؟

رويت القصة بسرعة، وكأن الكلمات تتدافع للخروج قبل أن ينهار كل شيء. بعد لحظة صمت قال الرجل:

– أعطني العنوان... سنرسل فريقًا ليتحقق من الأمر.

أغلقت الهاتف.

احتضنت ابني بقوة. شعرت كأنني أحاول أن أثبته في حياتي قبل أن تأتي يد غريبة لتنتزعه منها. ثم جلست أنتظر مصيرًا غامضًا بدأ يزحف ببطء نحو أسرتي.

بعد نحو ساعتين، دوّى طرق قوي على الباب.

ظننتها الشرطة.

فتحت الباب.

كان رجل وامرأة، وما إن فتحته حتى دخلا دون استئذان.

– أين زوجتك؟

– في الصالون... في الطابق الأول.

– تفضل معنا.

صعدنا الدرج.

دخلنا الصالون. كان الضوء خافتًا، والجو مثقلًا بتوتر لا يُرى لكنه محسوس.

كانت زوجتي مستلقية على الأريكة، وأمها تجلس في الجهة المقابلة. بدا المشهد لي كأنهما أستاذ وتلميذته في درسٍ خـــاص... درس في الشر.

سأل الشرطي بهدوء:

– ما المشكلة بينكما؟

لم تنتظر زوجتي كثيرًا. تكلمت بانفعال واضح:

– كان يخاف أن أقود السيارة في الطريق السريع. أنـــا ذهبـــت إلى فرنسا بسرعة مئة وخمسين كيلومترًا في الساعة! هو إنسان مريض.

قاطعتها الشرطية بنبرة حازمة:

– تكلمي باحترام.

في تلك اللحظة فهمت أن الشرطة لم تأتِ لتأخذ الأطفال، بل لتفهم ما يجري وتحاول تهدئة الوضع. شعرت بشيء من الارتياح، كـــأن عبئًا ثقيلًا خفّ قليلًا عن صدري.

لكن الأم تدخلت فجأة، وقالت ببرود:

– أنت لست في مستوانا... ابنتي لم تعد تريدك.

نظرت إلى الشرطيين وقلت بصوت يختلط فيه الحزن بالغضب:

– سبب هذا الخراب... هذه المرأة.

كان الاحتقان يملأ الغرفة.

وكأن الشيطان وجد فيها مسكنًا دائمًا.

كانت قد أخذت عطلة طويلة من المغرب، وكأنها جاءت لتبقى حتى يكتمل الطلاق.

بدا أن الشرطي أدرك طبيعة التوتر بيننا.

قال بهدوء:

– من الأفضل أن تعيشا منفصلين داخل المنزل إن كان ذلك ممكنًا... إلى أن تهدأ الأمور.

ثم التفت إليّ وسأل:

– هل هذا ممكن؟

قلت:

– نعم... سأنزل إلى الشقة السفلية.

كانت شقة صغيرة مستقلة: غرفة، صالون، مطبخ، حمام، وحديقة صغيرة.

في اليوم التالي انتقلت إليها.

والغريب أن الأطفال تبعوني.

رغم صغر سنهم، كانوا يميزون بين الظالم والمظلوم.

أما الجدة، التي يفترض أن تكون نبع الحنان ومصدر الأمان، فقد تحولت في أعينهم إلى شيء آخر...

إلى شبح مخيف.

إلى الساحرة الشريرة ذات الأنف الطويل التي تركب مكنسة وتطير فوق البحار لتنفيذ مهمة بلا رحمة، تدفع ابنتها أولًا، ثم الأطفال، نحو مصير مجهول.

كنت أعلم أن الطلاق بالنسبة لي كرجل ليس نهاية العالم.

تحملت المسؤولية منذ سن صغيرة، وتعلمت التكيف مع أصعب الظروف.

لكن الشيء الوحيد الذي كان يؤرقني حقًا... هو أبنائي.

أخذت إجازة مرضية من العمل، وكرّست وقتي للعناية بهم.

مرّ أسبوع.

ثم في أحد الأيام سمعت طرقًا على الباب، وصوتها يقول ببرود:

– ملابسك هنا... قرب الباب.

فتحت الباب.

كانت ملابسي مرمية على الأرض.

وقفت لحظة بلا حركة.

وفي تلك اللحظة تذكرت يومًا بعيدًا...

يوم وصلت إلى بلجيكا أول مرة، حين استقبلتها في المطار بباقة ورد.

كم كانت المسافة بعيدة بين ذلك اليوم... وهذه الأرض الباردة.

– كافي... كافي...

صوت المضيفة أعادني إلى الطائرة.

كانت تمرّ في الممر حاملة القهوة والسندويشات.

فتحت عينيّ.

الواقع تغيّر...

لكن الحزن لم يتغيّر.

اللـوحـة

القهوة...

لم تكن بالنسبة لي مجرد مشروبٍ محفِّز، بل كانت واحة ألوذ بها من ضجيج الحياة وبرودة الغربة.

لم أكن أدعها تفوتني أبدًا؛

رفيقة الصباح، وزميلة العمل، وحصن خلوتي.

حتى في قاعة الرياضة كنت أصطحبها معي في الحافظة، كأنها طقس صغير يحفظ توازني.

وها هي تمر الآن أمامي...

ولا ألتفت إلى عطرها.

غضضت بصري عنها.

الزهد في حالتي ليس اختيار تقيٍّ منيب،

بل قدر سجينٍ كُبِّلت ملذاته.

أما عودتي إلى تلك الأحداث المفزعة، فلم تكن اختياراً أيضـــا، ولا ضرباً من المازوخية. إنه فقط استسلامٌ لمنحدرٍ مظلم، لا يُرى لقاعه نهاية.

أدخلت الملابس الملقاة على الأرض، نظّفتها ثم وضعتها في الخزانة.

أعددت الغداء للأطفال، ثم جلست وحدي صامتًا.

بعد لحظات، جاءت ابنتي الصغرى، ذات السبع سنوات.

كانت الدموع تلمع في عينيها.

مدّت إليّ لوحةً كتبت عليها جملة بالفرنسية.

حروف متصلة، أخطاء لغوية كثيرة...

لكنها كانت تحمل صدقًا فطريًا وبراءةً لا تُشترى، حبًّا يســـتحق أن تُحارب جيوش الدجال من أجله.

كتبت:

«أبي، عندما تكون حزينًا أكون أنا حزينة.

ذلك يجعلني حزينة.

لا أريدك أن تكون حزينًا، ولا أريد أن أكون حزينة...

إذن لا تفكر في الأمر».

هكذا كتبت.

حاولت أن أستعير ابتسامةً من الأمل الذي لا يفارق قلب المـــؤمن مهما اشتدت الظروف.

ولا أدري إن كنت قد وضعتها على وجهي كما ينبغي.

ضممتها إلى صدري...

حتى لا أنكشف.

ثم هممت بالخروج.

كان الانتقال من مكان إلى مكان محاولةً يائسة للهروب من حطـــامٍ يسكنني.

فتحت باب الشقة السفلية، واتجهت نحو الباب الرئيسي.

– اسمع.

جاء الصوت من أعلى السلم.

كانت العجوز تنظر إليّ بتعبيرٍ متشفٍّ:

«أبناؤك مثلك... سيعيشون كما عشت أنت، مع زوج الأم.

لقد كنت تبرّه... وكانت الأمور جيدة».

كنت إنسانًا مسالمًا طوال حياتي، وعتبة انزعاجي كانت مرتفعة.

لكن عندما يبلغها الظلم أو التجريح، كنت ألقّن خصومي دروسًا لا تُنسى.

أما في تلك اللحظة...

فقد تحولت إلى طفلٍ يتيمٍ تائه.

لا...

لم تكن أموري جيدة.

كنت أعاني في صمت.

الحياة مع زوج الأم... نزيفٌ لا يلتئم.

كأنني كنت أستعطفها:

لا تصلوا إلى هذه الدرجة... أرجوكم.

تمنيت لو تبتلعني الأرض،

أو ألا أكون شيئًا مذكورًا.

نظرت إلى الزوجة وقلت لها:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة».

رأيت في عينيها ابتسامة المنتصر.

آه...

لو علمت ثقل ما قلت، وعلمت أن الله يرى،

لخرّت ساجدةً تائبة.

فتحت الباب وخرجت...

وفي اللحظة نفسها فتحت عيناي.

«الرجاء شدّ الأحزمة... نحن بصدد النزول إلى مطار طنجة».

طنجة

هبطت الطائرة بسلام، وصفّق الركاب.

فالإنسان في الحقيقة يعلم أن الدنيا كلهـــا مخـــاطر، وأن الســـلامة إنجاز... لذلك صفّقوا.

ازدحمنا في ممر الطائرة.

كل واحد منا يريد أن يسبق الآخر، وكأن هذه الـــدقائق الأخـــيرة فاصلة.

نوع من الارتخاء انبعث من داخلي.

يقال إن العقل يتفاعل مع العالم الخارجي من غير إدراك منا؛

لعل هواء المغرب جعله يقوم بتحديثٍ جديد...

ويمحو سنوات الغربة.

وصلنا إلى منطقة استلام الأمتعة.

حقائب مسجلة تدور في ممر يشبه مسار لعبة السكة الحديدية.

متعة غريبة ترتسم على ملامح كل مسافر ظفر بحقيبته.

يستمر السباق...

هذه المرة نحو شرطة الحدود حيث الطوابير.

الناس تتوزع عليها بشكل منتظم:

دائمًا التوجه إلى الأقل ازدحامًا.

اخترت مساراً...

ككل المسافرين.

رفعت رأسي، فإذا بشرطي مغربي تظهر على ملامحه الصرامة.

الابتسامة في وجه المسافرين صدقة مستحبة...

لكنها غير واجبة.

ويبدو أنه يكتفي بالفرائض.

مخطئ من يعتقد أن الشيطان يحمل رسالة واحدة:

إدخال بني آدم إلى جهنم.

إدخال الإنسان إلى عالم الحزن...

بالنسبة إليه إنجاز.

حديث في داخلي بدأ ينطلق.

وتساؤلات ملعونة تسربت إليّ:

هل لُفِّقت لي هنا تهمة أيضًا؟

نعم...

ممكن.

كل شيء أصبحت أنتظره منها...

ومن عائلتها.

الطابور طويل. والوصول إلى الشرطي نهاية رحلة الوساوس المظلمة.

فإما شقيّ... أو سعيد.

دقات قلبي تتسارع.

وبعث الأمل مهمة صعبة.

تجربة مطار بروكسل نجحت في تشكيل عقدة داخلي.

أخاف ممرًا ضيقًا آخر.

وزنزانة أخرى.

وأخشى أن تكون المدة أطول.

أنا مجرم... بلا تهمة.

إنسان ينتظر محاكمة على شيء لا يعلمه.

والحقيقة... أنني استسلمت لهذا الأمر.

كأنني بالفعل مذنب مقرّ بذنبه.

لم أعد أتمرد على هذا الظلم.

كل ما أخشاه...

أن أُبعد عن أبنائي وراء قضبان حديدية لا ترحم.

منحدر داكن من الهواجس أوصلني أخيرًا بين يدي الشرطي.

قدمت له جواز السفر.

نظر إليه.

قلب صفحاته.

ثم نظر إليّ وقال:

– مرحبًا بك.

– شكرًا.

إني بريء.

جبلٌ من المخاوف تبخر في كلمة واحدة.

أخذت جواز سفري، وعانقت حرية وطني.

خارج المطار يتواجد أصحاب سيارات النقل.

– كم الثمن إلى وسط مدينة طنجة، من فضلك؟

إلى إحدى وكالات البنك الشعبي بالضبط؟

– مئتا درهم بالضبط.

– طيب... موافق.

لم يكن في جيبي سوى خمسين يورو.

بل كان ذلك كل ما أملك

بعد سنواتي في بلجيكا.

الطلاق... استنزفني.

دخلت الوكالة.

قدمت بطاقتي وقلت:

– أريد سحب عشرة آلاف درهم، من فضلك.

نظرت الموظفة إلى الشاشة.

ثم قالت:

حسابك فارغ، سيدي.

– ماذا؟

لقد كان لدي المال.

انظري مرة أخرى، من فضلك.

رفعت رأسها، ونظرت إليّ بثبات.

ثم قالت من جديد:

حسابك فارغ، سيدي.

المفاجآت لا تنتهي.

وكأن الطلاق حرب استنزاف.

صواريخ ترسل بانتظام.

عقبات متتالية.

ونهاية... مجهولة.

أمعقول أنها أتت إلى المغرب وأفرغت الرصيد؟

أنا الآن عالق في طنجة.

لا أعرف أحدًا هنا.

وإن كنت أعرف، فلا أستطيع الاستنجاد بأحد.

بقي في جيبي ثلاثون يورو فقط. لا تكفي لأي شيء.

وفي تلك اللحظة لم أكن أعلم أن هذا الموقف في طنجة سيغير أشياء كثيرة.

أنت في حضرة الأم

خرجت من البنك.

كان عقلي متوقفًا تمامًا؛ لم يعد لي قرار ولا اختيار.

الإمكانية الوحيدة هي البقاء في مكاني...

لعلّ القدر يبعث إليّ سفينة نجاة.

ضجيج السيارات مرتفع، والمارة يمشون في حماس.

الشمس تبعث ضياءها بسخاء.

ظلي من تحتي يطول... وأنا ثابت متسمّر، كمحارب حاصرته الألغام.

يرن الهاتف.

– ألو، من معي؟

– السلام أخي، أنا أميرة. وصلت؟

– نعم، أنا في طنجة.

– هل تريد قضاء اليوم هناك؟

– لا، لا...

أنا في مأزق يا أختي. لم يعد لي حساب في البنك، وأنا عالق هنا.

– انتظر أخي... سأكلم معاذ وأعود إليك.

في الحقيقة، لم أكن معتادًا على طلب المساعدة من أحد.

لم يجعل الرحمن سبحانه يدي سفلى أبدًا.

لكنها أختي... وأنا في حالة ضعف بشري طبيعي.

الإهانة هي أن يُمتهن الضعف، وقد زودك الله بأدوات القوة والعفة.

يرن الهاتف مرة أخرى.

– ألو، من؟

– أنا معاذ.

– أخي، لا تحزن.

اذهب مباشرة إلى أقرب جهاز صرف، وأدخل الرقم الذي سأرسله لك عبر الواتساب، واسحب مبلغًا من المال.

القطار المتجه إلى القنيطرة سينطلق بعد ساعة.

أنا في انتظارك، أخي.

كأن هذه الكلمات جاءت من عالم آخر... عالم ظننت أنه انتهى.

اعتقدت فعلًا أنني أخذت نصيبي من نعيم الدنيا، ولم يبقَ لي منها إلا الحزن.

خمسون دقيقة كانت كافية ليصل بنا القطار السريع إلى محطة القنيطرة.

من بعيد تراءت لي عائلة أخي الصغيرة.

كلما اقتربت منهم أشرقت ابتسامتهم أكثر.

الحب الحقيقي يُرسم على ملامح الوجوه، وعيون القلوب لا تخطئه.

أخي الصغير، المهندس معاذ، الذي كان بالأمس كابني الصغير، هـــا هو اليوم يواسيني.

ينتقل بي من مكان إلى مكان، إلى المقهى الذهبي المطل على نهر سبو.

أضواء الشارع يعانق انعكاسها ظلمة ماء النهر.

أخي معي، نشترك في شرب القهوة مع قطعة حلوى.

جمال اللحظة يسحب بساط الحزن برفق، ويحجب تلك الـــذكريات بأحداث جديدة مختلفة.

كل شيء على ما يرام، والدنيا لا تزال جميلة.

الردة عن جمال الحياة كانت خطأ... وأنا الآن أتوب.

في اليوم الموالي انتقل بي إلى شاطئ مهدية، المدينة الصغيرة الهادئـــة الجميلة.

لا يمكن أن تصلها وتفوتك مطاعم السمك.

كان غذاءً مميزًا، وجوًّا عائليًا لا يقدر بثمن.

حل الليل، فودعتهم، وركبت القطار المتجه إلى وجدة...

إلى مدينة طفولتي.

إلى المجتمع الصغير الذي تكونت فيه شخصيتي، والذكريات الجميلة التي تركتها ورائي حين قررت أن أكمل دراستي الجامعية في أوروبا.

طرقت باب مترلنا.

– من؟

– افتحي الباب... أنا.

– ابني! ابني!

فتحت الباب...

وعانقتني.

الزمن يتوقف.

منها بدأت انطلاقة الحياة، وعندها كان الأمان من الخـــوف، وأول قوتٍ جعله الله عندها.

لم يكتف القدر بما منّ عليّ به في القنيطرة، بل زادني الله من فضـــله بهذا اللقاء الجميل.

في جو عائلي مميز يتوسطنا إبريق الشاي المغربي، ناقشنا كل شيء... حتى تفاصيل طلاقي.

لكن لم أرد الإطناب في الحديث عنه، ولم أخبر أمي بالاعتقال.

لا أريدها أن تحزن، تمامًا كما لم ترد ابنتي أن أحزن.

أجمل إرث يقتسمه الأبناء هو الخلق، هو البر الذي ينتقل من أبـــوين صالحين إلى ذرية صالحة.

اتصلت أختي أميرة، وأوصت أمي أن تعطيني مبلغًا كانت تـــدخره عندها.

الأخ الأكبر، الذي لعب دور الأب فترة، واقتـــنى بيتًـــا لإخوتـــه وعالهم...

ها هو اليوم يُعامَل كطفل يحتاج السند.

اللحظات الجميلة تنفلت بسرعة، لكنني أدركت شيئًا في تلك الأيام القليلة:

أن الإنسان قد يخسر كل شيء... إلا أهله.

موعد العودة حان... وذكريات الألغام بدأت تتسلل إلى داخلي من جديد.

هل كانت رحلة المغرب نهاية تلك الحرب؟ أم مجرد هدنـــة قصـــيرة يكافئ بها المحاربون أنفسهم حين تتراكم الخسائر؟

هبطت الطائرة في بروكسل.

لم يصفق أحد هذه المرة.

خرج الركاب في صمت، وكل واحد منهم يسير نحو حياته.

أما أنا... فكنت أشعر أنني أسير نحو فصلٍ آخر من المحاكمة.

الممر نفسه.

الجدران نفسها.

لكن قلبي لم يعد كما كان.

أبحث عن نفسي الجنة التي وعد بها

الدجال لم تكن جنة.

جلست على أحد مقاعد المطار أستريح من وعثاء السفر.

فالتعب لا يصيب المسافر على الأقدام أو على الدواب فقط، بل هو قدر المسافر بأفكاره أيضًا.

رحلة أحمل فيها أمتعة أحداث الماضي، وأمضي شاقًّا طريق البحث عن أسباب الطلاق.

كانت تردد عبارة: «أبحث عن نفسي».

تلك الجملة التي انتشرت كمرضٍ مميت يصيب إحدى خرز القلادة: الزوجة، فينفكّ عقد الأسرة.

والغريب أن هذه العبارة تتكرر بالتركيبة نفسها، بالحروف نفسها، وبالنغمة نفسها.

كأن المؤثرين يلقنونها بإتقان، يكررونها بلا ملل حتى تستقر في النفس، فتتحول إلى حقيقة لا تقبل التنازل.

أحيانًا يحتاج الرجل إلى أن يدخل كهفه قليلًا، ليعيد ترميم نفسه.

لكن ذلك يُفسَّر صمتًا عقابيًا.

وإذا كان حازمًا في أمرٍ يخص أمن الأسرة، سموه علاقة سامة.

ويجعلون الفرار حلًا، ويرون أن التركيز على أي شيء إيجابي في الزوج ظلمٌ للنفس واستسلامًا لتلاعبٍ نرجسي.

إن تمسك بك، فهو ــ في نظرهم ــ نرجسي.

مصاص دماء لا يريد أن تفلت منه فريسته.

الفرار، في خطابهم، هو طريق الحرية والسعادة...

وجنة الدنيا الموعودة.

مرض النرجسية، الذي لا يصيب إلا نسبة ضئيلة من الناس ويشخّصه الطبيب المختص، تحول فجأة إلى وباءٍ أصاب كل الآباء.

نشرت عبر صفحتها عبارة: «اخترت نفسي».

أما أنا، فكانت معركتي أن أنقذ ما يمكن إنقاذه.

أن أبسط قلبي لاحتواء ما تبقى من خرز العقد، وأن أحمي أبنائي لنخرج بأقل الخسائر.

والغريب أنها قالت لي بعد أن انتهى كل شيء، وبعد أن صار قلبي كشيخٍ اتخذ موقفًا نهائيًا لا رجعة فيه:

«أنا آسفة.. كنتَ إنسانًا طيبًا. ما كان عليّ أن أطلب الطلاق.

كان ينبغي أن أفعل كما تفعل النساء الذكيات: أغضب عند أهلي... حتى أحصل على كل ما أريده».

الجنة التي وعد بها الدجال لم تكن جنة.

صار الشقاء قدرها، وأصبح السعي وراء لقمة العيش إلزامًا بعد أن لم تكن تحتاج إليه.

تحطم الأمان، وأصبح المستقبل ضبابيًا.

بصدق... لا أريد أن أغوص أكثر في وصف تلك الجنة الجديدة، رغم ما يصلني من أخبار موجعة.

اللهم لا شماتة.

لكن العجوز كانت أكثر وعيًا.

جريمتها لم تكن أزمة نفسية عابرة، بل كانت سبق إصرار وترصد.

والشماتة بما وصلت إليه شعورٌ يعسر عليّ انتزاعه من قلبي، مع الأسف.

محطة القطار توجد في الطابق السفلي، أسفل المطار مباشرة.

وصلت أخيرًا.

فتحت الباب ودخلت مترلي.

المكان فارغ... مهجور.

الجدران باردة، والصمت الرهيب يملأ البيت.

ليس لدي تواصل معها، لكنني كنت متأكدًا أنها ذهبت مع أمها والأبناء إلى فرنسا عند أختها.

لقد طلبت مني الطلاق، وفي نظرها تكفي هذه النية لتصبح محرمة عليّ.

كانت إذا أرادت النزول إلى الطابق السفلي حيث أقيم، ترتدي الحجاب.

حرّم عليها الشيطان التبرج أمامي.

تسافر حيث تشاء، وتفعل ما تشاء، وليس لي أن أعترض.

توضأت وصليت ركعتين.

ثم أخذت المصحف، وبدأت أقرأ سورة البقرة، أتجول من غرفة إلى غرفة.

كان البيت فارغًا... لكنني كنت أشعر أن شيئًا ما ما زال يسكنه.

جسدي يرتجف، كأنني أطارد ظلًا لا يُرى، أو أحاول أن أنقذ بيتًا بدأ يغرق.

الشوكولاتة والورد

أحيانًا لا تموت المشاعر... بل تُعاد إليك في علبة مغلقة.

عدتُ إلى الشقة السفلية...

إلى فراشي البارد.

أطارد النوم دون جدوى.

كان الاتصال بالمعارف بالنسبة إليّ بصيص أمـــل، اســـتغاثة رجـــلٍ تتساقط لبنات بيته وهو مقيّد.

لعل الحل يكون في دعوة رجل صالح،

أو فكرةٍ توقف مشروع الهدم.

كان الهاتف يضيء في العتمة...

كأنه آخر باب أطرقه.

اتصلت.

– ألو... الشيخ عبد الله ؟

السلام عليكم ورحمة الله..

– وعليكم السلام ورحمة الله..

– أنا تلميذك القديم يا شيخ...

أنا في مأزق.

رجلٌ مقيّد، محجورٌ عليه، لا يملك أدنى سلطة في بيته.

طلبت الطلاق وانطلقت، وأنا أعيش الإهانة.

ألم تعلمنا يا شيخ أن الزواج له قواعد وأركان حتى يكون صحيحًا؟

وأن أباها ما كان ليوافق لو سقط ركن من تلك الأركان؟

فلماذا يصمت اليوم يا شيخنا الفاضل، وابنته لا تأبه بأركان الطلاق كلها؟

سكت لحظة... ثم قال:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

واسترسل بصوت هادئ:

– الأمر عظيم يا سليم.

اصبر... فهذا ابتلاء.

وهو للصالحين دليل محبة الرحمن،

ترفع به الدرجات، وهو تمحيص للمؤمنين.

والفرج كالفجر... يعقب الليل.

وليس للعبد أن يأبى ما قدره الله.

كانت كلمات طيبة...

موعظة كلها أمل.

الله سبحانه يرى، وكل أمر بيده.

والتسليم له تجارة رابحة.

أغلقت الهاتف ببطء.

بقيت أحدق في الشاشة المظلمة.

كان البيت صامتًا... صامتًا إلى درجة أنني كنت أسمع صوت أنفاسي.

صعدت الدرج، وصلت إلى غرفة الأطفال.

الألعاب في أماكنها،

والسرير الصغير ما زال مرتبًا كما تركوه.

جلست على حافة السرير.

في تلك اللحظة فقط فهمت شيئًا:

أن الصبر...

ليس كلمة، بل جرحٌ يتعلم الإنسان أن يعيش معه.

حملت هاتفي من جديد.

– ألو... أستاذة أم تسنيم، السلام عليكم ورحمة الله.

– وعليكم السلام ورحمة الله.

قلت لها:

– لا أظن أن هناك من يفهم المرأة أكثر من المرأة،

وأنت واعظة ومربية...

لذلك أحدثك بقصتي.

استمعت قليلًا...

ثم قالت بنبرة واثقة، وبكلام مختصر:

– اشترِ شوكولاتة ووردًا...

واكتب لها كلمات ود.

ثم أضافت:

– إن شاء الله سينتهي كل شيء.

في الصباح سمعت صوت المفاتيح.

ركض أبنائي نحو حجرتي.

نعم... أنا هنا.

هكذا خاطبت نبضات قلبي صوت أقدامهم، رغم العاصفة التي هزت استقرارهم فجأة.

احتضنتهم بعمق.

كان شوقي إليهم كبيرًا.

أخرجت من داخلي المحطم ابتسامة متعبة وقلت:

– ماذا يريد أبنائي أن يأكلوا؟

سأحضر لكم الفطور الذي تقترحونه.

جلسنا حول الطاولة...

لكن ليس بالعدد نفسه.

بقي الكرسي الذي كانت تجلس عليه أمهم فارغًا.

وضعت الأطباق...

ثم توقفت لحظة.

فصٌّ غائب من العقد.

هل سيعود يومًا فتكتمل القلادة؟

أم سأشد طرفي العقد لأحفظ ما تبقى من الخرز؟

ابنتي الصغيرة لم تكن تفهم كل ما يحدث، لكنها كانت تشعر أن شيئًا كبيرًا يتغير.

قالت بصوت خافت:

– أبي... لا أريدك أن تنفصل عن أمي.

لا أريد الطلاق.

نظرت إليها وقلت مبتسمًا:

– كم أنت جميلة يا ابنتي... ما شاء الله.

أتحبين هذا الجبن؟

لم يكن لدي جواب.

الأشياء تتغير من حولي

ولا أملك لها شيئًا.

نحن جميعًا ركاب سفينة القدر.

خرجت لأشتري الورد والشوكولاتة.

لم أسأل نفسي إن كان الحب ما زال حيًّا في قلبي،

أو إن كانت الجروح أعمق من أن تلتئم.

الحقيقة أنني كنت أحبها كثيرًا.

كانت عشرة عمر.

كنت أأتمنها على كل شيء.

كنت أرى فيها تلك الفتاة التي عرفتها أول مرة،

وأنتظر أن تعود.

كتبت رسالة بخط يدي...

تشبه كثيرًا تلك الرسالة

التي كتبتها لها يوم الخطوبة.

وضعتها مع علبة الشوكولاتة.

انتظرت المساء.

كانت غالبًا ما تأتي إلى الشقة السفلية للاستحمام.

تخبرني عبر ابنتي أنها ستأتي، حتى أخرج وأفسح لها الطريق.

ذلك المساء دخلت قبل أن تكمل الاستحمام.

وعندما خرجت... قدمت لها الهدية.

ابتسمت ابتسامة غريبة لم أفهمها.

أخذت الهدية وصعدت الدرج...

إلى الطابق العلوي.

مرّ الوقت بطيئًا.

ثم طُرق باب الشقة.

– من؟

– أنا.

فتحت الباب.

كانت أمها.

في يدها الورد...

والشوكولاتة...

والرسالة.

كانت الشوكولاتة كما هي.

لم تُفتح.

أما الورد فقد بدأت أوراقه تنحني قليلًا.

أخذت الرسالة.

كانت مطوية...

لكني لاحظت أن الورقة مجعدة قليلًا.

كأن أحدهم فتحها...

ثم أعاد طيها بسرعة.

قالت ببرود:

– أنت لا تفهم.

ابنتنا لا تريدك.

وهم النجاة..

أُغلقت كل الأبواب فجأة.

استُهلكت كل الحلول، وكأن القضاء حكم وانتهى كل شيء.

لم يبق إلا الاستسلام للأمر الواقع، والتفكير في المستقبل...

ثم محاولة التعايش مع الحياة الجديدة.

لم يتبقَّ سوى ثلاثة أسابيع للبحث عن شقة جديدة.

مدة قصيرة جدًا...

وفي نهايتها سأُمنع من هذا المنزل.

كانت المهمة صعبة، إن لم نقل مستحيلة.

الكراء في مدينة بروكسل لم يكن أمرًا سهلًا.

الطلب مرتفع جدًا، والعرض شبه منعدم.

ثم جاءت الحرب الأوكرانية لتضخ عددًا هائلًا من العائلات إلى المدن البلجيكية، فازداد الأمر تعقيدًا.

في صباح اليوم الموالي وضعت سماعتي الهاتف في أذنيّ، وشغلت القرآن.

اتجهت إلى الحي الذي توجد فيه مدرسة ابنتي،

لعلّي أجد مسكنًا قريبًا من المؤسسة.

بحثت في الأزقة كلها...

لكنني لم أجد لافتة واحدة تشير إلى شقة للكراء.

وأثناء عوديّ لمحتها صدفة.

كانت تقف بسيارتها عند إشارة المرور.

طرقت نافذة السيارة وقلت:

– افتحي... لا بد أن نتكلم.

فتحت الباب.

ركبت إلى جانبها.

سألت ببرود:

– ماذا تريد؟

قلت:

– لا بد أن نتحدث. اعتبريه آخر كلام بيننا.

سكتت لحظة.

ثم قلت:

– خذينا إلى مقهى بانوراما... في حي مولنبيك.

توقف صوت المحرك.

كنا قد وصلنا.

نزلت أولًا... ثم تبعتني.

لم يتغير شيء عن الماضي.

لم يكن في بروكسل مقهى محترم إلا ودخلناه يومًا.

كنت أحاول أن أعوض أسرتي عن غياب الأهل والأحباب بتجربة المطاعم المختلفة.

كنا نخرج إلى المطعم مرتين في الأسبوع على الأقل.

لكن الشيء الوحيد الذي تغيّر...

هو أجسامنا.

فقد صرنا أنحف بكثير.

دخلنا المقهى.

اخترنا الطاولة نفسها التي كنا نجلس عندها دائمًا.

وضعت النادلة المشروب الذي طلبته أمامها،

ووضعت أمامي فنجان قهوتي.

لم ألمسه.

كانت القهوة تبرد ببطء...

كما برد كل شيء بيننا.

كان الصمت مخيمًا.

ترتيب الأفكار يحتاج وقتًا،

والاستعداد لسماع كلام قد ينسف كل الوساوس قد يحتاج وقتًا أطول.

إنها مقاومة تبدأ قبل أن يبدأ الحوار.

قلت أخيرًا:

– حسنًا... اسمعيني جيّدًا.

يعلم الله أنني سأكون صادقًا.

عندما جئتِ أول مرة إلى بروكسل، وضعتِ كل ملابسي في الغسالة وسكبتِ عليها ماء جافيل.

لم تكوني تحسنين إعداد وجبة واحدة...

إلا الشاي.

تعلمنا كل شيء معًا.

أدخلتكِ مدرسة عليا لتعلم المحاسبة،

وكنا نتناول غالبًا طعامنا في المطاعم.

كان بيتنا آمنًا.

صغيرًا في حجمه...

كبيرًا بالمودة والبساطة والعفوية.

كانت صديقاتك يقلن لك:

"أحسن زوجين نعرفهما هما أنتما".

أما أمك فكانت ترى ذلك سذاجة.

توقفت لحظة وأنا أتذكر تلك الأيام.

ثم نظرت إليها وقلت:

– كنتِ كابنتي الصغيرة... وكنت أحبك.

لم يكن التمرد موجودًا في السنوات الأولى.

ظهر مؤخرًا، لكنك كنت تعتذرين سريعًا وتقولين:

"أمي هي التي قالت هذا الكلام... ليس أنا".

لكن هذا التمرد الآن مختلف.

إنك تحملين قسوة لم أعهدها.

إنه قرار مفاجئ جعلني في حيرة.

قبل يوم واحد فقط من طلب الطلاق كنت تناديني "حبيبي"...

ثم بعده أطلقتِ أول رصاصة.

لا أدري ما الأسباب...

ومهما كانت، فالإصلاح خير.

نحن أكثر حرية عندما نختار الشريك، لكن حريتنا تصبح أقل عندما نرتبط، وحين يكرمنا الله بأمانة الذرية.

نعم... الإصلاح خير. وأنا مستعد لتنفيذ أي طلب تريدينه، أو أي تغيير ترغبين فيه. وكفى بالله شهيدًا.

كانت عيناها ثابتتين على الطاولة، كأنها تنظر إلى كلمات خفية تحثها على الثبات.

قلت:

– مروة... انظري إليّ.

رفعت رأسها.

ما إن التقت عيناها بعيني حتى انفجرت بالبكاء.

خفضت رأسها مرة أخرى.

صمدت قليلًا...

ثم رفعت رأسها من جديد وقالت بحزم مصطنع:

– الله يشهد يا سليم أنك قلت كل شيء...

لكنني مصممة على الطلاق.

قلت:

– طيب... أكملي حلواكِ لنفكر في الأمر.

أخذت الملعقة، وانتزعت قطعة صغيرة.

ثم قالت:

– حسنًا... نعود، لكن لا أريد أن أبقى في البيت نفسه.

أنا غير مرتاحة هناك.

اختلطت داخلي مشاعر كثيرة.

هل أفرح لأن الأسرة ربما أُنقذت؟

هل ستلتئم جراحي؟

هل ستبقى ثابتة على هذا القرار...

أم أن أمرنا ما زال بيد من يحرك الخيوط في الخفاء؟

ركبنا السيارة.

هذه المرة كنت أنا من يقود.

توقفنا عند أحد المتاجر المعروفة.

اشترت بعض الأغراض للمترل، وكانت تبدو سعيدة.

قبل أن تدخل البيت قلت لها:

– عديني أنك لن تخبري أمك بهذا القرار.

قالت:

– أعدك.

اتجهت بعدها إلى وسط المدينة.

كان الحمل أخف قليلًا...

لكن الأسئلة ما زالت ثقيلة.

تجولت قليلًا بين المتاجر، ثم جلست في أحد المقاهي التركيـــة الـــتي تقدم الشاورما مع المشروبات الساخنة.

قلت للنادل:

– من فضلك... كابتشينو بلجيكي، وشاورما مع السلطة وصلصة الأندلوس.

وضع كل ما طلبت أمامي.

فجأة اهتز الهاتف في جيبي.

كانت رسالة منها.

فتحتها.

"اسمع... أنت لا تفهم.

كل شيء بيننا قد انتهى.

دع محاولاتك.

لم أعد زوجتك. وأقسم إن حاولت مرة أخرى... سأخبر الشرطة".

المنقذة

أخبرتنا الأحاديث الشريفة أن إبليس يبعث سراياه، فيقول أحدهم: فعلت كذا وكذا.

فيقول: ما صنعت شيئًا.

ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين امرأته.

فيُدنيه منه ويقول: نِعم أنت.

نعم...

ما تركه حتى فرّق.

عندي بدأت الأمور تبدو كأن أحد سرايا إبليس قد دخل بيننا، ينفذ مهمته في صمت.

أمها بالبيت.

دخلت يومها بقرار التراجع عن الطلاق.

ثم جاءت رصاصة الرحمة.

بعثت رسالة التراجع عن العهد، انتهى كل شيء.

رفعت الهاتف واتصلت بصديقي عبد الرحيم...

صديق مرحلة الجامعة، المعروف باستقامته...

– ألو... كيف حالك؟

كنت أشعر أن الانهيار وشيك، وأن محاولات رجل واحد لن تحمـــي بيتًا يتداعى.

قال لي:

– أتعلم ما الحل يا سليم؟

سكت لحظة ثم قال:

– بلّغ الشرطة أن مدة مكوث العجوز قد تجاوزت الوقت المسموح به، ولا بد أن تعود إلى المغرب.

لم أتردد. لم أفكر كثيرًا في مآل الأمر.

في تلك اللحظة بدا لي أن كل الوسائل مباحة، حتى إن لحم الخنزير يصبح حلالًا لمن خشي الهلاك من الجوع.

اتجهت إلى شرطة أندرلخت وأخبرتهم بالأمر.

أرسلوا دورية إلى البيت للاستفسار.

لكن الصدمة كانت في ردّة فعل أهلها.

فقد اعتبروا ذلك دليلًا على صحة قرار الطلاق،

وكأن الأمر قد اتضح لهم أخيرًا.

وصلتني رسالة من أبيها:

"لقد اتضحت لنا حقيقتك أخيرًا".

ثم أرسلت هي رسالة مليئة بالغل:

"من حق أمي أن تبقى في البيت، وقد أكدت المحامية ذلك".

انكشفت أمام عائلتها.

وأصبح القرار واضحًا:

أنا الذي سيغادر البيت.

المشاكل تتراكم...

والطلاق أصبح حتميًا.

العجوز لن تغادر. لقد أعطيتها فقط مبررًا أكبر لما فعلته... حتى لا تُسأل يومًا عنه.

عدت إلى البيت، إلى الشقة السفلية.

كان الأطفال ينتظرونني.

العجوز في الطابق العلوي تحتل المكان،

وابنتها خارج البيت تحضّر لحياتها بعد الطلاق.

التحقت بإحدى المدارس العليا لتكمل دراستها...

وتبحث عن نفسها.

قلت:

– تعالي يا زهراء إلى حضن أبيك.

ضحكت وسألتها:

– ماذا فعلت ابنتي اليوم؟

قالت بحماس:

– رسمتك يا أبي.

– أين الرسم؟

مدّت الورقة الصغيرة نحوي وقالت:

– ها هو... خذه.

نظرت إلى الورقة.

كان الرجل في الرسم نحيفًا... أصلع الرأس.

ابتسمت وقلت ممازحًا:

– لكن يا بنيتي... هذا الرجل أصلع!

وأنا ما زلت أتمتع ببعض الشعر!

ضحكت بصوت عالٍ.

في تلك اللحظة فقط شعرت أن البيت...

لم يسقط بعد.

كانت زهراء دلّوعة البيت.

وكنت أسميها بيني وبين نفسي: المنقذة.

لم تكن هذه أول محاولة تقوم بها العجوز للتفريق بيننا.

كان مشروعها واضحًا منذ البداية.

كانت تريد لابنتها أن تنفصل، أن تحقق ذاتها، أن تصل إلى أعلى المراتب، وتتفاخر بذلك بين عائلتها.

عندما وُلد عاصم، الابن الأكبر، كان ذلك صدمة لها.

خاصمت ابنتها مدة طويلة.

ثم جاءت ولادة هاجر... فزاد غضبها.

طفلان... ومع ذلك لم تتخلّ عن حلم الطلاق.

كانت ترى أن ابنتها قادرة على تحقيق كل شيء، حتى وهي أم لطفلين.

وحين اشتدت المعركة بيننا، خطر لي سؤال بسيط:

لماذا لا ننجب طفلًا آخر...

لعل الأسرة تنجو؟

فجاءت زهراء.

الطفلة التي ستنقذ البيت.

ثلاثة أطفال...

كانت تلك معركة حقيقية.

العجوز منهارة.

وفي تلك اللحظة أيقنت أن الحرب قد وضعت أوزارها،

وأن للأسرة فرصة أخرى لتكمل طريقها.

سألتهم:

– طيب، ماذا سنحضر اليوم للأكل؟

أجاب ابني بسرعة:

– نقانق وسلطة يا أبي.

ثم قال مبتسمًا:

– وأنا سأحضر السندويشات.

كانت الأيام تمضي...

وحتى الآن لم أجد مسكنًا.

تذكرت إدريس، ذلك الرجل الأربعيني الذي جاء ليسكن معنا حين كنا طلبة، وكان ذلك مباشرة بعد طلاقه.

الثمن كان مناسبًا، والاقتصاد في هذه المرحلة أصبح ضرورة.

فأنا مطالب بالإنفاق على مسكن جديد...

وعلى أبنائي في البيت الذي طُردت منه.

كنت أحضّر قهوتي عندما جاء ابني متسللًا نحوي.

اقترب وهمس في أذني:

– أبي... العجوز ستسافر غدًا إلى المغرب.

في صباح اليوم التالي سمعت صوت الحقائب تتدحرج على الدرج.

كانت تلك أسهل طريقة لإنزال الأمتعة الثقيلة.

نزلت إلى الطابق العلوي وطرقت الباب.

فتحت الباب ونظرت إليّ باشمئزاز.

قالت بحدة:

– اسمع... سأكررها، ولن يهدأ لي بال حتى أراك بالأصفاد في يديك.

أكررها: أنت لست في مستوانا.

ثم قالت:

– أنا مسافرة إلى المغرب... وسأعود قريبًا جدًا.

وأضافت بنبرة تهديد:

– أحذّرك من الصعود إليها.

الشرطة ستأتي فورًا.

كانت تعلم أنني لن أقهور،

ولن يدفعني استفزازها إلى الخروج عن القانون.

فرجل تعلم فقه المآلات لا يجازف بمستقبل أبنائه.

حملت أمتعتها...

ورحلت.

يقال: إن الناس عند الرحيل نوعان:

مستريح... أو مستراحٌ منه.

الجنة تستقبل من استراح، والنار تستقبل من استُريح منه.

خيم الصمت في البيت.

نعم... رحلت. لكن الدمار كان قد انتشر في الأسرة.

جاء المساء. تسللت إلى فراشي.

قد لا أنجح في النوم، لكن على الأقل أضع رأسي على الوسادة.

الوسادة وحدها تتحمّل ثقل أفكارك.

هي لا تنام...

لا تغمض عينيها مثل الآخرين وتتركك وحيداً تحارب الخوف.

الظلام مسيطر...

فجأة أضاء الهاتف، ورنّ منبّه رسائل الفايسبوك.

إنها رسالة منها.

لقد أزالت عني الحظر على الفايسبوك.

كتبت:

"لا أنسى أنك كنت تقول كذا وكذا..."

كلام غير مرتب، واتهامات باطلة.

كتبت لها:

"...

أنا لم أقل هذا أبدًا".

توقفت الرسائل لحظة...

ثم كتبت:

"أكرهك".

شيء ما بداخلي جعلني أتحرك نحو الدرج.

شـعـور غـريـب

لم أكن أندفع نحو الأعلى لغاية أعرفها، بل كنت أتحرك بلا تفكير.

لم تكن لدي نية أن أثنيها عن فكرة الطلاق، ولا أن أسألها: لماذا فعلت كل هذا؟

ولا حتى أن أعرف إن كنت أستحق ما حدث لي.

كنت فقط أنتقل من درجة إلى أخرى ببطء، وكأن قدميّ مترددتان.

أمسكت عمود الدرج كما يفعل طفل يصعد السلم لأول مرة.

عندما وصلت، وجدتها مستلقية على الأريكة.

شعرها مصفف...

وترتدي لباسًا جديدًا.

كانت مستلقية بهدوء...

كأن شيئًا لم يحدث.

خيم الصمت في المكان.

كنت أقف في وسط الصالون، وهي متكئة لا تتحرك.

نظرت إليّ... ثم تكلمت.

كلام كله عتاب على تفاصيل صغيرة، أشياء لا تستحق خصامًا، فضلًا عن أن تكون سببًا لطلاق.

كلمة لم تعجبها، رسالة لم أردّ عليها، موعد تأخرت عنه.

أشياء صغيرة...

كانت أمها في المغرب، وعشر دقائق فقط كانت كافية لنقترب مـــن اتفاق يحمي البيت من الانهيار.

أمعقول أن يكون الكابوس في طريقه إلى الزوال؟

كان الأمل يطرق الباب...

لكنني كنت أخشى أن أفتحه.

فالتجارب السابقة

جعلتني أقل اطمئنانًا.

قالت فجأة:

– أنا لست مرتاحة هنا.

لا أدري...

شيء ما بداخلي يجعلني لا أطيق المكوث في هذا البيت.

ثم نظرت إليّ وقالت:

– هل تعدني أن نبيع هذا المنزل ونشتري بيتًا في مكان آخر؟

أجبتها:

– نعم... أعدك.

أيقظت الأطفال.

كانت زهراء لا تصدق ما ترى.

العائلة اجتمعت أخيرًا حول طاولة واحدة.

الفرحة التي ارتسمت على وجوه الأطفال لا توصف.

كان ذلك اليوم يشبه يوم عيد.

عدنا زوجين أخيرًا...

لكن ليس كما كنا من قبل.

كان هناك ألم في داخلي لم أفصح عنه.

هل سأنسى السجن، والألم، والقسوة، والإهانة من إنسانة كانت يومًا نصفي الآخر؟

قلت لنفسي: نعم... من أجل الأسرة.

فالأيام كفيلة بأن تخفف الألم، بل ربما تمحو ذكراه.

فرحة أبنائي بالدنيا، وما الدنيا إلا دار ابتلاء.

لكنني، في أعماقي، كنت أنتظر شيئًا واحدًا...

أن تعتذر.

نعم... تعتذر.

فشيء في داخلي كان مكسورًا.

يقال إن الاعتذار يطهر القلوب ويجبر الخواطر.

وضعت يدها على خدها، وتنهدت ثم قالت بصوت خافت:

– آه يا سليم... ماذا فعلت بك!

كان صوتًا خرج من الأعماق، كأن إنسانًا فقد وعيه لحظة، ثم عـــاد إليه عقله فجأة.

نهضت مسرعة إلى إحدى الغرف وانفجرت بالبكاء.

تبعتها بسرعة.

فالحذر كان ما يزال مطلوبًا، وكل شيء قابـــل للانقـــلاب في أي لحظة.

صرخت وهي تبكي:

– سليم... ماذا أقول لهم؟

ماذا سأقول لهم؟

سألتها:

– من هم؟

قالت وهي تهز رأسها:

– لا أستطيع...

لقد وعدتهم...

كنت أعلم أن هناك أناسًا في الخفاء، وأن أمها وحدها كانت تعلـــن عن نفسها.

لكنني حاولت إقناعها بالعودة إلى الهدوء.

وفي صبيحة اليوم الموالي اجتمعت العائلة حول مائدة الفطور.

كان العقد مكتملًا...

لكن انعزالها كان ملحوظًا، وسعادتها أيضًا.

كأنها تحولت إلى شخصين:

زوجة اختارت أن تعود إلى بيتها، وأخرى مضت على عهد جديد.

حرب بداخلها لا تهدأ، ومصير العائلة مرتبط بمن ستكون له الغلبة.

أما أنا...

فكنت متعبًا.

لبست لباس الصلاة

ونزلت إلى الشقة السفلية.

تأخرها كان مريبًا.

ثم نزلت...

كانت تبكي من جديد، لكن هذه المرة بصوت مرتفع

وصراخ غريب.

كانت تتخبط بيديها وتصرخ، كأنها تحارب شيئًا لا أراه.

في تلك اللحظة لحق بي الأطفال.

الخوف كان واضحًا في أعينهم.

قلت لهم بهدوء:

– اطمئنوا... كل شيء على ما يرام.

ثم قلت لعاصم:

– خذ إخوتك إلى الأعلى... لا تخافوا.

أمسكت بيديها بلطف،

وقرأت:

{وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ}

وبدأت أقرأ آيات من القرآن...

حتى سكن كل شيء.

إلا شيئًا في داخلي كان يهمس بأن الأمور لم تنتهِ بعد.

عـود ثـقـاب

هاجر، البنت الوسطى، كانت أكثر أبنائي تأثرًا.

التطورات الأخيرة جعلت وجهها الشاحب يشرق من جديد.

الأمل انبعث أخيرًا من ركام هذا الانكسار الكبير...

اقتربت من مكتبي وابتسمت:

– أبي، هل نذهب في عطلة إلى المغرب هذه السنة؟

ابتسمت بدوري وقلت:

– طبعًا، حبيبتي... سنعود كما كنا، ونرتب الأمور بشكل أفضل.

كانت الأمور بالفعل تعود تدريجيًا إلى ما كانت عليه.

انعزال مروة قلّ بشكل ملحوظ، وابتسامتها عادت إلى الظهور.

في الحقيقة، حتى أنا... ورغم الزلزال الذي عشته، والذي قد يجعل أي إنسان آخر يفحص صلابة الأرض قبل كل خطوة، رميت كـــل شيء وراء ظهري.

سأتعايش مع الجرح، وسأقود هذه الأسرة إلى برّ النجاة.

عدت إلى العمل.

جسد نحيل...

جعل كل زملائي يتساءلون.

كانوا يهمسون، كل واحد يعطي تفسيره الخاص:

أحدهم قال:

– مرض نفسي... غالبًا لا يتحمل مسؤولو الإنتاج ضغط العمل.

وقال آخر:

– لا، أظنه قام بحمية. أعرفه جيدًا، كان يحدثنا كثيرًا عن الحمية وفوائدها.

فردّ ثالث:

– لا... هذا حزن عميق.

ابتسامته المتعبة لا توحي بعكس ذلك.

لا بد أن هناك مشاكل عائلية.

الطلاق أصبح كالنار في الهشيم...

أخباره لا تنتهي.

كانت تلك الأحاديث تصلني، لكنها لم تكن تزعجني.

فالعمال في حاجة دائمة إلى مواضيع تبعدهم عن روتين العمل.

وأنا بدوري، كنت أشارك أحيانًا في أحاديث تنقلني بعيدًا عن صخب خط الإنتاج.

ومع الوقت...

بدأت مروة ترسل لي كلمات حب، وترسل أيضًا إعلانات لمنـــازل جميلة للبيع...

وكأنها تحاول أن تبدأ حياة جديدة...

أو أن تمحو ما حدث.

بعدما وزعتُ العمال على أماكن العمل وفق البرنـــامج اليـــومي، وتأكدت من توفر كل ما يحتاجونه من قطع الغيار، جلست علـــى مكتبي، وفتحت الحاسوب.

أقرأ ما فاتني من الرسائل الإلكترونية، وأراقب عبر برنامج خـــاص سلسلة الإنتاج.

كان الوقت يمر ببطء، وكنت في أمسّ الحاجة إلى أن أكون حاضرًا في البيت لا بد من الحذر...

لا أعتقد أن أرباب الحرب سيسكتون.

كنت أفكر في عطلة طويلة، نبتعد فيها عن الجميع، ونضع هواتفنـــا على وضع الطائرة.

اقتربت العاشرة...

بيننا وبين الحرية دقائق.

وضعت التقرير النهائي، وانصرفت.

ركبت سيارتي واتجهت إلى البيت، كـــان لا بـــد أن أخـــبر أمـــي بالتطورات.

– ألو، أمي، كيف حالكِ وأخوتي؟

– الحمد لله، أخبرني أنت كيف حالك؟

– الحمد لله يا أمي، الأمور في طريقها إلى الحل...

لكن بصراحة، لست سعيدًا.

شيء بداخلي يجعلني أشعر أن هناك شيئًا ما سيقع...

وفي الحقيقة، لم تعد لدي القدرة على أن أحارب أكثر.

أنا رجل يترف...

صمتت قليلًا، ثم قالت:

– اسمع يا بني...

مروة كانت تحبك كثيرًا.

كانت تقول لي: لن أتنازل عن سليم أبدًا.

إنهم يحركونها كما يشاؤون...

أمها تريد أن تحقق بابنتها ما لم تحققه هي.

إنها معركتها هي...

تُسقط تجربتها عليكم.

تمسّك بأسرتك... وانسَ كل شيء.

أعانكم الله يا بني...

لن يخيبك الله أبدًا.

لقد كنت ابني الأكبر... وأبانا أيضًا.

أنا راضية عنك.

كانت كلماتها...

كأنها نصر لم يُبذل فيه أي جهد.

ثقة غريبة، وطمأنينة فورية.

وصلت البيت أخيرًا.

العشاء على الطاولة، وإبريق الشاي ينتظرني.

جلست بقربي، وهمست:

– أشعر بطاقة سلبية في هذا البيت...

لا بد أن ننتقل إلى مكان آخر.

قلت:

– نعم... لقد أرسلت رسائل إلكترونية لكل المنازل التي أرسلتِها لي، وإن شاء الله نظفر بسكن جديد.

استرسلت:

– ألم أقل لك؟ لقد أخبرت أختي خديجة بعودتنا، وقلت لها ألا تخبر أمي...

حرارة مفاجئة انتشرت في جسدي...

كأن عود ثقاب مشتعل وُضع تحت الهيكل الخشبي الـــذي يمســـك توازن مترلنا البلجيكي القديم.

الموقف كان حرجًا.

ولومها على كسر العهد لم يكن مناسبًا في تلك اللحظة.

كنت أشعر باقتراب النار...

ورغم ذلك ابتسمت.

نظرت إليها، وبذلت جهدًا كبيرًا حتى قلت:

– نعم... فيها خير.

صباح مثقل بالرسائل عند

الصباح...

جاءت الرسائل التي كنت أخشاها.

تتساقط على هاتفي كصواريخ تعبر كل ما تبقى من أمل.

سبّ...

وشتم...

وإهانات بالجملة.

لم تسلم عائلتي من لسانها، حتى أختي الصغيرة...

لم ترحمها.

"أنتم تعيشون في الحرام...

قضيتكم في المحكمة، إذن علاقتكم حرام!"

"يا من تدّعي التدين..."

"كيف ستفهم كلامي يا ابن..."

ثم كتبت:

"قل كل ما أقول لأمك".

"ابنتنا عاشت مدللة، وعلى فراش من حرير...

أما أنت، فقد كبرت في صندوق خشبي".

"عشتم في بيت للكراء...

يا عائلة الحمقى".

"وترسل لنا شيخًا ليصلح بيننا؟

من هذا الشيخ؟

رجل يتكلم في الدين فقط؟!"

ثم جاءت الضربة الأخيرة:

"اعلم أننا سنأتي إلى بلجيكا، أنا وزوجي...

وسننتقم منك... ومن ابنتنا أيضًا".

أغلقت هاتفي...

لكنني لم أجد زرًّا لإيقاف هذا الضجيج المفاجئ.

حضّرت مروة فطور الصباح.

أخذ كل واحد منا مكانه.

الطاولة لا ينقصها أحد...

عقد جميل متكامل، يمسكه خيط رفيع.

كانت مروة اليوم مختلفة عن الأمس.

التوتر واضح، والتردد بادٍ عليها.

أما الأطفال، فكانوا يتمّون احتفالهم بزوال الخطر.

عفوية...

ونشاط زائد.

عاصم يصب الشاي لإخوته الصغار، وزهراء تغني أغنيتها المشهورة:

"أبي، أين أنت...؟"

فجأة، قالت مروة:

– سليم... أبي اتصل بي.

يقول إن إجراءات الطلاق يجب أن تتم.

يباع المنزل، ويُقسّم كل شيء...

ثم نعود بعد ذلك إلى علاقتنا.

سكتت لحظة، ثم أضافت:

– لقد حجز لي سفرًا إلى المغرب غدًا...

هل تأخذني إلى المطار؟

صمتٌ قليلًا...

ثم أجبتها:

– طبعًا... سأفعل إن شاء الله.

كان الصمت... أثقل من كل الكلمات التي قيلت.

عدت إليه...

إلى حوار داخلي، ومصارحة كاملة.

عائلتها مصرة على إتمام المهمة...

الطلاق لا بد منه.

هي مترددة...

إن عادت، فبشروط المنتصر.

وأنا رجل مستترف...

طاقتي فارغة.

وأنا اليوم، مثلها، متردد أيضًا.

الطلاق قدر...

ولا أحد يستطيع أن يفرّ من القدر.

ثم إنني بين خيارين، أحلاهما مرّ:

إما أسرة ناجية...

لكن الأب فيها مهان، وزوجة منتصرة عازمة على فـــرض شـــروط حياة جديدة...

أو طلاق...

يكون فيه الجميع خاسرًا.

ولم أكن أعلم...

أي الخسارتين ستكون أهون.

خطواتها الأولى... وحدها

الهاتف لم يتوقف...

وحوار مروة مع عائلتها أخذ القسط الأكبر من الوقت.

لم أكن أدري ما الذي يدور بينهم، لكن مع مرور الوقت، بـــدأت ملامح السكينة تظهر على وجهها، كأنها وصلت إلى قرار نهائي.

كانت تتكلم بثقة مبالغ فيها، وكأنها وُعدت بجوائز لا حصر لها.

أما أنا...

فقد اتخذت قراري مثلها.

لن أبذل أي مجهود إضافي.

الأمور بين يدي الله وحده.

في اليوم الموالي، أعدّت حقائبها.

كانت تتحرك بهدوء، كأنها تقوم بأمر عادي...

لا كمن يستعد لاقتلاع جزء من حياته.

راقبتها دون أن أقول شيئًا.

كل شيء كان يُفهم... دون كلمات.

ركبنا السيارة، واتجهنا إلى المطار.

الطريق كان مألوفًا...

لكنه بدا لي أقصر من المعتاد، أو ربما أنا من لم أعد أحتمل الطـــرق الطويلة.

لم نتحدث كثيرًا.

كانت ترد أحيانًا على هاتفها، وأنا أراقب الطريق...

وأهرب من الأسئلة التي تتزاحم داخلي.

عند الوصول، كانت لا تلبس الحجاب، كما رأيتها أول مرة.

تفصيلة صغيرة...

لكنها أعادتني إلى بداية الحكاية، وكأن الدائرة تكتمل.

تمضي مسرعة بين ممرات موقف السيارات...

وضحكاتها كانت مرتفعة.

كأنها تهرب من الحقيقة...

أو تؤجلها.

كأن الضحك كان آخر وسيلة لتقنع نفسها أن كل شيء بخير.

داخل المطار، كان كل شيء طبيعيًا بشكل مؤلم.

أصوات المسافرين، الإعلانات،

الخطوات المتسارعة...

حياة كاملة تتحرك من حولنا.

أناس يهرولون بحماس، وآخرون خطواتهم مترددة.

الوصول عند البعض سعادة تنتظر، وعند آخرين... مأساة تترصد.

توقفنا أمام ركنٍ تزينه الأزهار.

وبعده مباشرة، كان ممر ختم جواز السفر.

المكان الفاصل...

بين "نحن" و"ما بعدنا".

التقطنا صورًا عائلية.

ابتسامات مصطنعة...

ونظرات لا تلتقي.

كان هناك شعور داخلي يخبرني أنها... الصور الأخيرة.

حاولت أن أثبت ملامحي، أن أبدو عاديًا...

كما يفعل الناس في مثل هذه اللحظات.

لكن شيئًا في داخلي كان ينهار بصمت.

وقفت لحظة...

كأنها تنتظر شيئًا...

أو ربما كنت أنا من ينتظر.

ثم مضت.

مضت وحدها في الممر، تجر حقيبتها ببطء هذه المرة...

خطوة...

ثم أخرى...

دون أن تلتفت.

وكأنها تتمرن على الحياة وحدها.

وقفت في مكاني.

أراقبها تبتعد...

حتى ابتلعها الممر.

وفي تلك اللحظة فقط...

أدركت أن بعض النهايات

لا نختارها...

بل تُكتب لنا من الخارج.

نهايات... لا يصاحبها صوت.

ضحكٌ لا يشبه الفرح

نهاية كل شيء لم تكن تعني لي التعاسة...

فالوقت لم يكن في صفي.

لم يكن لدي ترف الحزن، ولا رفاهية الانهيار.

الآن... يجب عليّ أن أجد بيتًا للكراء.

نهاية الشهر تقترب، ويقترب معها تنفيذ حكم المحكمة...

ولا بد أن أغادره.

لم يبقَ لي الكثير من المال، وأنا بحاجة إلى شقة... وأثاث.

أجوب الأزقة بلا ملل، والسماعات في أذني...

القرآن أنيسي.

كنت خارج المكان والزمان...

جسد يتحرك، وروح معلّقة.

غموض كبير أمامي، ولا بصيص أمل قريب.

فقط نداء داخلي يقول:

استمر... لا يمكن أن يضيعك الله .

كانت الإعلانات قليلة جدًّا.

وجدت إعلانًا... بشقّ الأنفس.

اتصلت...

اتفقت مع صاحب الشقة على موعد للمعاينة.

لكن الطوابير كانت طويلة...

لم أكن وحدي من يبحث عن مأوى.

توقفت بجانب أحد الأرصفة، بعيدًا عن الصف.

نفسي تزهد في كل أمر عليه إقبال شديد.

لكن هذه المرة...

لم يكن لي خيار.

إما أن أقف في الطابور، وأتشبث بأملٍ ضعيف...

أو أتعفف، ويعقب ذلك عسرٌ لا يرحم.

عسر...

لن يتوقف عندي، بل سيمتد ليحرق أطفالي أيضًا.

وهنا... عاد بي الزمن فجأة.

لم أكن أول من يقف في هذا المكان...

ولا أول من يخاف على أطفاله من المصير نفسه.

كنت يومها طفلًا...

دخلت البيت، أحمل محفظتي الثقيلة على ظهري،

وسمعت همسًا خافتًا يأتي من غرفة جدتي...

لم ألتقط من ذلك الهمس إلا كلمات متقطعة:

– قولي له...

– بل أنتِ قولي له...

لم أكترث كثيرًا.

أنزلت محفظتي، وناديت:

– أمي... إني جائع.

قدّمت لي الطعام، فسألتها كعاديّ:

– أمي... هذه المرة طال غياب أبي...

عندما يغضب ويغيب اليوم كله، أشتاق إليه كثيرًا...

فجأة دخلت جديّ.

قالت بهدوء ثقيل:

– سليم، ولدي...

عمرك الآن ثمان سنوات، وأنا أعلم أنك ستتفهم ما سأقوله لك...

توقفت لحظة... ثم أضافت:

– والدك ووالدتك...

اتفقا على الطلاق.

تجمدت اللقمة في فمي...

كأنها أبت أن تنزل.

كنت طفلًا...

لا يبدي رأيه.

علّموني أن الجدال من سوء الخلق، وأن رفض ما يـــراه الكبـــار... شقاوة.

نظرت إليها... ثم إلى أمي... ولم أنطق.

أخذت أمي الكلمة، وقالت:

– سترى يا بني أن حياتنا ستكون أفضل...

أبوك كان يفرض نمط حياة لا يُطاق.

ثم أضافت:

– سأشتري لك ذلك المسدس المضيء

الذي طالما حلمت به.

طأطأت رأسي...

ولم أنبس ببنت شفة.

كان الحريق يشتعل في داخلي...

مستقبل غامض...

وبركان أحزان مكتومة.

خرجت من الغرفة...

وإذا بأبي يطرق الباب كغريب.

أخذني معه إلى الحديقة.

كان يحرص على مشاعري...

يتكلم عن قدر الله، وعن فضل الصابرين، وأن الابتلاء أصاب حتى أنبياء الله...

ثم قال:

– أنا وأمك يا سليم... سنفترق.

لكن هذا لن يؤثر عليك في شيء.

أنا أبوك...

وهي أمك...

أسبوع عندها...

وأسبوع معي.

فجأة...

انقطع اتصالي بكلماته.

بدأت أتذكر مسلسلات الطلاق...

أبناء تفرقوا، ثم تزوج الآباء، وتحولوا إلى غرباء في بيوت غيرهم...

إلى عبيد... إلى متهمين دائمين...

حتى انتهى الأمر ببعضهم

في الشارع...

على الرصيف.

إلا واحدًا...

كان صامتًا، خانعًا، يصبر على الأذى...

ولا ينتظر شيئًا.

قررت أن أكون ذلك الأخير...

فأنا أخاف النوم وحدي على الرصيف.

نظرت إلى أبي...

وقلت بهدوء طفلٍ لا يفهم،

لكنه يخاف:

– كما ترون يا أبي...

– أنا كنت هنا أولًا! لا يمكنك أن تسبقني!

ارتفع الصوت فجأة...

فضجيج الاكتظاظ مزّق ذلك الصمت الذي كنت غارقًا فيه،

وأعادني إلى حيث يقف جسدي الآن...

سحبتني قدماي إلى آخر الطابور.

الشقة مناسبة جدًا لي، على بُعد أمتار فقط من مدرسة زهراء.

لا بد أن تكون هذه الشقة من نصيبي...

فبدونها، لن تقبل المحكمة أن أستضيف أطفالي أسبوعًا كاملًا.

وددت لو أصرخ... وأقصّ محنتي عليهم.

نعم... ربما كانوا سيتنازلون ويتركون الشقة لي.

أنا متأكد أنهم سيتفهمون وضعي...

ثم تراجعت.

استغفرت الله.، تذكرت قول سيدنا يوسف لصاحبه في السجن:

"اذكرني عند ربك" فلبث في السجن بضع سنين.

كأن الله يعلمني ألا أسأل غيره...

أن أصحاب الطابور لن ينفعوني...

إلا بما كتب الله لي.

ربي... إنك أعلم بحالي، وأعلم بما هو خير لي.

أحدهم يهز كتفي برفق...

– سيدي... نادينا عليك مرات عدة، وأنت غائب.

ثم أشار بيده:

– هذا دورك... تفضل لمعاينة الشقة.

لم تكن شقة كبيرة...

فقط غرفتان وصالون، ثم مطبخ وساحة صغيرة،

إضافة إلى الحمام.

بعد إتمام المعاينة، اقترب صاحب الشقة مني وقال:

– هل تشتغل؟

– نعم.

– أين؟

– في شركة ألمانية مختصة في صناعة السيارات.

– كم عدد أفراد العائلة؟

– أربعة... أنا وأطفالي الثلاثة، لكن أسبوعًا معي وأسبوعًا مع أمهم.

قال:

– طيب، سأعطيك بريدي الإلكتروني،

أرسل لي عقد عملك ونسخ كشف الراتب للأشهر الثلاثة الأخيرة...

وسأرد عليك آخر الأسبوع.

عدت إلى البيت ذلك اليوم، وأنا أحمل أملًا بسيطًا...

البيت كبير، حديقة واسعة، وغرف كثيرة...

لكن الصمت بداخله مخيف.

أطفالي لاجئون في إحدى الغرف...

كل شيء تغيّر عندهم فجأة.

القوة المصطنعة التي أبديها لأطمئنهم لا تكفي...

فالواقع أقوى من أن تخفيه ابتسامات مزيفة.

أمهم منذ مدة غائبة...

رحلات مستمرة مع العجوز إلى فرنسا، ثم هي الآن في المغرب.

اقتربت من عاصم، حضنته، نظرت إلى عينيه وابتسمت:

– بنيّ، ما رأيك أن تخرج لعبة الذاكرة وتلعب مع إخوتك ريثما أعدّ لكم وجبة العشاء؟

أجاب بثقة:

– أنا رجل يا أبي...

أخرجت من الثلاجة "بيتزا"، وضعتها في الفرن، وأكلنا.

اتسعت ابتسامتي، وقبّلته.

– وأنتِ يا هاجر، هل أتممتِ قراءة الكتاب الذي اقتنيته لك؟

أجابت:

– نعم يا أبي...

ولا بد أن تعطيني مكافأة إتمام القراءة التي وعدتني بها.

– بالتأكيد يا حبيبتي.

صرخت زهراء:

– وأنا؟ أين مكافأتي؟

اقتربت منها، جلست على ركبتيّ، ونظرت في عينيها:

– طيب... ماذا قرأتِ؟

أجابت بحماس:

– أنا أيضًا قرأت كتابًا يا أبي!

– وأين هو الكتاب؟

ذهبت مسرعة إلى المكتبة، وأحضرت مجلة أطفال صغيرة.

أخذت المجلة، تصفحتها، وقلت وأنا أضحك:

– ما شاء الله...

المجلة لا تحتوي إلا على صور، وقرأتِها كلها!

– نعم يا أبي... كلها!

انفجرنا جميعًا بالضحك...

فجأة...

استقبل عاصم رسالة عبر الواتساب من أمه.

فيديو لها...

سعيدة، تقود سيارة أبيها، في الشارع المقابل لبحر السعيدية.

الموسيقى مرتفعة، تردد كلمات الأغنية، وتضحك بصوت عالٍ.

شعرها مصفف، تعبث به الرياح المتدفقة من نافذة السيارة المفتوحة...

كنا نضحك جميعًا...

لكن الدوافع كانت مختلفة.

حين بدأت أرتّب الرحيل

أيقنت أن الطلاق حتمي...

وأنها ستعود إلى بلجيكا بإصرارٍ أكبر على الانفصال.

استقبل عاصم رسالة جديدة من أمه.

– سأعود إلى بلجيكا بعد يومين...

وتلحق بي أمي بعد ذلك.

كان ابني يخبرني بكل شيء...

منذ ذلك اليوم الذي نودي فيه إلى الشرطة لاعتقالي، وهو حـــريص على أن ينقل إليّ كل ما قد يُحاك ضدي.

نعم...

قلت في نفسي:

لا بد أن تعود أمها...

ولا بد أن تُتمّ ما جاءت من أجله.

ولا بد أن تبوء بالإثم كاملًا.

رفعوا ضدي قضية كاذبة في الأرض...

ورفعتُ ضدهم قضايا عادلة في السماء.

اتهامي زورًا بالتطرف...

صراخي كالأحمق في الطرقات...

انهياري عند المحامي...

طردي من منزلي...

واعتقالي في المطار...

وقبل أن نقتني المنزل في بلجيكا...

كنا نفكر في شراء شقة في وسط مدينة وجدة.

أرسلتُ لأبيها المال...

ليدفعه لشركة البناء.

ثم تغيّر القرار...

واخترنا أن نشتري هنا، في بلجيكا.

أعاد لنا المال...

لكن ليس كما أُعطي.

أدخله في حساب ابنته...

وأضاف إليه مبلغًا آخر، واتفق معي أن أعتبره دينًا.

ثم طلب مني أن أُقرّ بذلك في القنصلية المغربية...

وفعلت.

وفي ملف الطلاق...

قال إن ما أرسله كان هبةً لابنته.

وأن الدين الذي وقّعت عليه...

مبلغ آخر استلمته.

لو رأيت هذا في مسلسل...

لقلت: مبالغة.

لكن الواقع... كان أكثر قسوة.

أدركت حينها أن بعض الناس لا يضعون ليوم الحساب وزنًا.

لم يعد أمامي إلا الاستسلام للواقع...

لا ضعفًا، بل صدقًا مع نفسي.

وقدرةً على التعايش مع ما تبقى.

اشتريت علبًا كرتونية...

وبدأت أرتّب فيها أغراضي.

نهاية الشهر كانت تزحف نحوي بلا توقف...

إما أن أظفر بالشقة الجديدة...

أو أعود من حيث بدأت.

حين كنت طالبًا...

في سكن مشترك، يجتمع فيه أناس حاصرتهم كوارث الحياة بين جدران ضيقة.

لن يكون الانتقال من بيت إلى آخر...

بل من حياة إلى أخرى.

الصندوق الأخير

وصلت مروة... كانت مختلفة... كما توقعت.

ليست بالقسوة نفسها التي كانت عليها حين كانت أمها معها، لكن تصرفاتها كانت تحمل رسائل واضحة.

– أنت إنسان طيب...

وأنا أريد أن أجرّب الحياة وحدي.

صرّحت لي في رسالة إلكترونية:

"أبي كان يحميني، وأنت كنت تفعل الشيء نفسه...

وقد سئمت من ذلك.

المرأة القوية هي التي تعتمد على نفسها،

وتتسلق سلّم النجاح.

أريد أن أتمّ دراستي، وأن يكون لي شأن عظيم...

أنا أفعل كل هذا من أجل الأبناء...

ومن أجل مستقبلهم".

قرأت الرسالة...

ولم أرد.

لم يعد لديّ جهد للنقاش.

زوجتي...

التي كانت تربي معي أبناءنا...

ماتت.

وهذه المرأة... جديدة.

والتواصل معها... مستحيل.

لم يكن لدي وقت لأراجع الدروس مع أبنائي...

البحث عن السكن، الطبخ، المحامي...

كل شيء كان يضغط عليّ من كل جهة.

وتراجع مستواهم أصبح واضحًا.

مرت أيام قليلة...

حتى لحقت بها أمها.

علب الرحيل المتراكمة في الشقة السفلية كانت تطمئنها...

فهي متأكدة أنني سأرحل بقوة القانون.

هدأت الحروب...

لكن الضياع بقي.

رنّ هاتفي.

– ألو... من معي؟

– دانيال، صاحب الشقة.

سكت لحظة... ثم قال:

– لقد قبلت طلبك.

حضّر مبلغ الكراء مرتين كضمان،

وغدًا... العاشرة صباحًا

نوقّع العقد.

أغلقت الهاتف...

ولأول مرة منذ مدة،

شعرت أن الأرض

لم تعد تميد بي.

حياة جديدة... ترتسم، وأقدار مختلفة... تنتظرنا.

لن أنسى موقف صديقي جبريل...

أقرضني كل ما احتجته في محنتي.

اشتريت أثاثًا جديدًا...

وأعطاني صاحب الشقة مفاتيحها.

بدأت أنقل أغراضي...

وغدًا آخر يوم في الشهر.

كانت مروة وأمها تراقبانني في صمت...

لا تتكلمان إلا همسًا.

نعم...

نجحتا في إخراجي من البيت.

ونجحتُ...

حين رضيتُ بالقدر.

حلّ الصباح...

بقي صندوق واحد فقط.

نظرت إلى النباتات التي غرستها...

إلى الجدران التي ألفتني...

قرأنا كثيرًا عن المسلمين حين طُردوا من الأندلس...

مررنا على ذلك مرور الكرام.

توقفنا عند الحضارة التي انهارت، وعند المجد الذي ضاع...

لكننا لم نشعر يومًا بذلك المسلم وهو يترك أرضه... وذكرياته.

اليوم... أدرك إحساسه.

حملت الصندوق...

واتجهت نحو الباب الرئيسي.

فجأة...

سمعت خطوات على الدرج.

رفعت رأسي...

كانت مروة.

تنظر إليّ من الأعلى...

سكتت قليلًا، ثم قالت:

– تعال يا سليم...

أريد أن أكلمك في أمر مهم.

ترددت...

فقدت الثقة.

كل ما يأتي منهم

صار مريباً.

لكنني صعدت...

حذراً...

ومنفتحًا في الوقت نفسه، لأجل ما قد يمسّ أطفالي.

دخلت.. كان أطفالي ملتفين حول الطاولة.

فطور... يشبه ذلك الذي كنا نعدّه

حين كنا أسرة.

جلست أمها في مكاني.

الارتباك كان واضحًا على مروة.

اقتربت مني قليلًا، وقالت:

– اجلس يا سليم...

وتناول الفطور معنا.

تكلمت أمها بهدوء...

وكأن شيئًا لم يكن:

– مروة اختارت أن تعيش وحدها...

دعها تجرّب.

ومن يدري... قد تعود إليك.

اجلس...

وتناول الفطور معنا.

جمعت ما استطعت من الكلمات، وقلت:

– لا... شكرًا.

قالت مروة:

– أتخاف أن أضع لك شيئًا في الطعام؟

لم أجب.

قلت في نفسي:

وضعتِ لي شيئًا في الحياة...

لن يُنسى.

نظرت إلى أطفالي...

ودعتهم.

اقتربت مروة فجأة...

وضمّتني.

لم تقل شيئًا...

ولم أقل.

كان عناقًا لا يُشبه العودة...

ولا يشبه الوداع.

انفصلنا...

دون أن ننظر إلى بعضنا.

هرولت نحو الباب... حملت صندوقي الأخير...

ورحلت.

مبروك عليك...

الشقة الجديدة...

صغيرة، نعم...

لكنها دافئة.

لم تكن انتصاراً...

لكنها كانت بداية.

سكينة غريبة تسكن المكان...

كأن الجدران هنا لن تخذلني يومًا.

لم يعد للصراع ذلك المعنى الذي كنت أراه فيه...

ربما لأنني لم أعد أملك ما أقاتل من أجله.

أو لأنني...

أخيرًا تعبت.

كانت مروة تبعث إليّ رسائل

من حين إلى آخر...

"اشتقت إلى كلماتك...

كل شيء بدونك مختلف..."

كانت تستخرج من قلبها

كل ما تبقى من أشياء جميلة...

كأن المشروع الجديد

لا يتسع لقلبٍ

يحمل ذكريات ميتة.

لم أكن أردّ إلا قليلًا...

كنت منشغلًا ببرمجة حياتي الجديدة.

يوم الجمعة... سيأتي الأطفال.

كما اتفقنا مع المحامية، سيكونون معي أسبوعًا...

إلى حين صدور الحكم.

الأسبوع الذي أعمل فيه مع فريق الصباح...

من السادسة صباحًا إلى الثانية بعد الزوال...

سيكون الأصعب.

قسم الرعاية في المدرسة لا يفتح إلا على السابعة.

بدأت أحسب التفاصيل الصغيرة...

وأدركت أن الحياة الجديدة لا تُبنى بالقرارات الكبيرة فقط...

بل بهذه الأشياء التي لا ينتبه لها أحد.

كان لديّ في العمل رصيد لا بأس به من ساعات العطلة...

لكنها تُؤخذ بالأيام لا بالساعات.

وكان استعمالها هو الوسيلة الوحيدة لأخذ الأطفال إلى المدرسة.

طلبت مقابلة أحد المسؤولين في الشركة...

أخبرته بشيء من قصتي، وما أحتاجه:

ساعة واحدة كل صباح.

نظر إليّ بأسى، وقال:

– إنسان غيرك يا سليم...

قد يكون تصرّفه مدمّرًا.

رفعت بصري إليه وقلت:

– أتعلم، سيد دومينيك...

كنت أخشى أن تتسلل إليّ هذه الأفكار.

كنت أحاربها...

كان أهم شيء بالنسبة إليّ إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

الأطفال...

لا ذنب لهم.

وأي تصرف انتقامي سيرميهم في حياة لا ترحم.

ثم إن السماء...

بارعة في تصفية الحسابات.

نظر إليّ طويلًا...

ثم مدّ يده وصافحني، وقال:

– أنت صديقي قبل كل شيء...

وقد عرفتُ إتقانك في العمل.

يمكنك أن تأخذ ساعة كل صباح...

بشرط ألا يؤثر ذلك على عملك.

خرجت من عنده...

وأنا أشعر أن العالم لم يعد ضيقًا كما كان.

كانت الأيام تتسابق...

وحكم المحكمة يقترب.

الأطفال فقدوا كثيرًا من مستواهم السابق...

كان عاصم على بعد حزام واحد ليحصل على الحزام الأسـود في التايكواندو.

وكانت هاجر وزهراء في الحزام الأزرق.

كنت أهيّئهم لمشروع نجاح موازٍ للدراسة...

لكنني اليوم مثقل بالديون.

رنّ هاتفي...

كانت المحامية.

– هل ما زلت مصرًّا على عدم الطلاق؟

هذا ليس في مصلحتك.

المبلغ الذي ستؤديه لزوجتك كبير...

وأنتم منفصلان.

لكن إذا تم الطلاق...

سينخفض.

سكتّ قليلًا... ثم قلت:

– كما ترين، سيدتي سارة.

أغلقت الهاتف... وغرق رأسي في بحر الأفكار من جديد.

كنت أتأمل كيف أن الزواج كان له شروط لا يقوم بدونها...

وكانوا يحرصون عليها كما لو كانت عبادة.

أما الطلاق... فبدا وكأنه يُفصّل على المقاس.

لم أفهم... هل كانت القواعد تُحترم فعلًا؟

أم تُترك...

حين لا توافق الواقع؟

هل يكون الطلاق صحيحًا عندما نُرغم عليه...

دون أن ينطق به القلب قبل اللسان؟

سكتّ... وتركت الجواب للسماء.

لم يتأخر الطلاق كثيرًا...

الأطفال أسبوع عندي، وأسبوع عندها.

العنوان الرسمي عندها... وأدفع لها أكثر من خمسمائة يورو شهريًا...

وأتحمل معظم المصاريف الطارئة للأطفال.

رنّ هاتفي مرة أخرى...

– ألو، قل لي: مبروك، قالت مروة... بضحكة تائهة.

أجبت بهدوء:

– مبروك عليكِ.

وأغلقت الخط.

تذكرت الحلم...

الأيام تمضي كأنها في سباق لا ينتظر أحدًا.

رصيد ساعات العطلة اقترب من النفاد...

وهمّ نقل الأطفال إلى المدرسة وإعدادهم كل صباح أصبح يطاردني.

لم يتبقَّ لي سوى خمس ساعات...

أي أسبوع أخير قبل أن أواجه الواقع كما هو.

كنت أصل إلى العمل قبل السادسة...

أراجع تقرير الفريق الليلي، أضع برنامج اليوم، وأوزّع العمـــال في أماكنهم...

ثم أخرج مسرعًا، أعود إلى البيت كأنني أركض ضد الوقت.

– لا تحرّكي رأسك كثيرًا يا زهرتي...

دعيني أمشّط شعرك كأجمل أميرة...

اقتربت هاجر مني، وقالت وهي تبتسم:

– أبي... هذه أميرة؟

هل هذه تسريحة الأميرات؟!

نظرت إليها متصنّعًا الجدية، وقلت:

– أنتم تغارون منها...

دعوا دلوعتي الصغيرة.

وضعت في محفظتها علبة الوجبة الدرسية وقنينة الماء،

ثم عدت إلى صمتي...

أنا وبناتي...

محاصرون بالوقت.

هيا، صغيراتي، إلى المدرسة..

كنا نصل دائمًا مع الساعة السابعة تمامًا عندما يفتح قسم الرعاية.

أقبلهما على الجبين، ثم أقول لهما كما كانت تقول لي أمي:

جعلكما الله ناجحتين، في رعاية الله..

ثم أمضي بسرعة إلى العمل..

لم تكن الحياة سهلة..

فبعد الانتهاء من العمل، لا أقصد البيت للراحة، بل أقصد المتجر مباشرة لأقتني ما نحتاج..

أعد الطعام، ثم أنتقل إلى المدرسة لأحضرهما.

كان صراعًا حقيقيًا مع الوقت، لكنه لم يكن يزعجني ما دمت أقرب أبنائي من حياة أسرية كاملة..

المشكلة الوحيدة هي نفاد ساعات العطلة....

لكن شيئًا في داخلي كان يطمئنني...

كنت كلما وصلت إلى نفقٍ مظلم، انفتح أمامي بابٌ مضيء.

جاء المساء...

راجعت الدروس مع أبنائي، تناولنا وجبة العشاء، ثم صلّينا...

جلسنا بعدها قليلًا...

كل واحد منا يروي شيئًا من يومه. كان عاصم الوحيد أكثر تحفظًا...

أقل كلامًا.

عند التاسعة مساءً، قلت بحزم:

– حان وقت النوم...

كلٌّ إلى فراشه.

ذهبت أنا أيضًا إلى سريري...

كان النوم أجمل لحظة في يومي...

ارتخاء كامل...

لا أقدام تركض، ولا عقل يطارد المهام...

فقط... سكون.

وفي الصباح... تذكرت حلمًا.

كعادتي... لم أهتم.

أنا أحلم كثيرًا... وأحلامي غالبًا لا معنى لها. لكن هـــذا الحلـــم... كان مختلفًا.

رأيت بطارية ضخمة... من تلك التي نصنعها في العمل.

كل شيء كان ساكنًا... ثم أدركت... أن كل العمال ماتوا. ومـــع ذلك...

كنا نتحرك... ونتكلم.

استيقظت...

وتجاهلت الأمر.

ذهبت إلى العمل...

لكن شيئًا ما لم يكن طبيعيًا.

سلسلة الإنتاج متوقفة...

وجوه متجهمة...

وأخبار تتناقل بصمت.

بعد قليل...

تم استدعاؤنا إلى اجتماع طارئ.

وقف مسؤول ألماني كبير...

وبصوت ثقيل قال:

– الشركة... أعلنت إفلاسها.

لم تستطع السيارات الكهربائية الألمانية الصمود...

أمام نظيراتها الأمريكية والآسيوية.

تذكرت الحلم...

لكن هذه المرة لم أستطع تجاهله.

حين تمضي الأقدار...

كانت جدتي عائشة، رحمها الله، تقول:

"إذا أُغلق باب... فُتحت أبواب".

لم أفهمها يومًا كما أفهمها الآن.

أُغلقت أمامي أبواب كثيرة...

لكن أخرى فُتحت...

لم أكن أتوقعها.

تعلمت كيف أكون أبًا...

بشكلٍ جديد.

أيامي صارت أبسط...

لكنها أكثر امتلاءً.

مع أبنائي...

وقت أطول، ضحك أكثر، وحياة تشبهنا.

لم يكن ذلك انتصاراً...

ولا خسارة.

كان فقط...

قدرًا وجدتُ فيه نفسي من جديد.

كبروا أمامي...

واخترت أن أكبر معهم.

صرنا نسافر كل صيف...

نقطع الطريق بالسيارة...

نضحك أكثر مما نتكلم...

وكأننا نستعيد ما فاتنا...

دون أن نشعر.

أما هي فقد مضت في طريقها.

سمعت أنها تزوّجت زواجًا عرفيًا...

وأن حياتها تغيّرت.

قالت لي في مكالمة:

"أنا آسفة...

كنت إنسانًا طيبًا...

ما كان عليّ أن أطلب الطلاق..."

ثم سكتت... وسكتُّ أنا.

لم أجب... ولم أحاول أن أفهم.

بعض الطرق...

لا نعرف إلى أين تنتهي...

إلا بعد أن نسلكها.

وأنا... اخترت أن أمضي وتركت ما بقي... للأيام.

انضم إلى مجموعة دار بسمة على واتساب، من هنا

تصفح إصدارات أخرى عبر مكتبة دار بسمة، من هنا

دار بسمة للنشر الإلكتروني

دار مغربية، رقمية، تأسست في 2017

دار بسمة للنشر الإلكتروني من أهدافها مساعدة الشباب المغاربة والعرب على نشر إبداعاتهم، وإيصال أصواتهم وتغريداتهم إلى العالم كله، كما تطمح لاكتساح عالم النشر الإلكتروني في كل الأقطار العربية..

كما أننا –في محاولة منّا لتغذية شريان الثقافة– نسترشد بالضمير الحي من أجل نشر المحتوى الثمين، حاملين على كواهلنا رسالة التنوير الحقيقي، ومدركين كل الإدراك لقيمة القلم النبيلة، لذلك كنا حريصين على نشر كل ما هو قيّم. في دار بسمة للنشر الإلكتروني نساند المؤلفين وندعمهم لإيصال إبداعاتهم لملايينَ من القراء، ونرشدهم إلى آليات فنية تعينهم على تحسين أساليب الكتابة والإبداع. وتقريبا لهذه الغاية تقوم الدار بتنظيم مسابقات متعدّدة، والإشراف عليها مجانا من أجل اكتشاف المواهب الشابة التي تستحق أن تُنشرَ أعمالُها بينَ القرأةِ والمثقفين، وذلك تشجيعا لهم على الاستمرارية في الكتابة الإبداع.

المحتويات

الإهداء 6
مقدمة..... 7
تنويه..... 8
المحامي..... 9
أصبح الإسلام تهمة..... 14
التوقيف..... 19
الطابق السفلي..... 24
في الطائرة..... 29
كانت ملابسي على الأرض..... 36
اللوحة..... 43
طنجة..... 48
أنت في حضرة الأم 55

أبحث عن نفسي الجنة التي وعد بها الـدجال لـم تكـن جنـة. 62
الشوكولاتة والورد..... 67
وهم النجاة..... 76
المنقذة 85
شعور غريب..... 95
عود ثقاب..... 102
صباح مثقل بالرسائل عند الصباح..... 109
خطواتها الأولى... وحدها..... 114
ضحكٌ لا يشبه الفرح..... 119
حين بدأت أرتّب الرحيل 131
الصندوق الأخير..... 136
مبروك عليك..... 145
تذكرت الحلم... 153
حين تمضي الأقدار..... 160

حين تتناثر خرزات العقد...
السؤال ليس: كيف انفرطت،
بل: هل يمكن جمعها من
جديد؟
بين تفكك بيت،
وأبٍ يحاول أن يمسك بما
تبقى،
تُروى حكاية إنسان
وجد نفسه بين خيارين...
كلاهما موجع.
وعن قراراتٍ
لا نختارها...
بل نخشى أن تُفرض علينا...
ليست حكاية طلاقٍ فقط...
بل حكاية بقاء،
لا نختاره...
«كنا نضحك جميعًا...
لكن الدوافع كانت مختلفة.»

دار البسمة للنشر الإلكتروني
bassmabook
00212771814934
darbassma1@gmail.com

يونس بن عربي